﴿حتى يسمع كلام الله﴾

صدق الله العظيم

جمال القرآن وهيمنته على التاريخ والعلوم

تأليف

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ-١٩٩٨م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المتصف بالجلال والكمال، صاحب القوة التى لا تحد، والكلمة التى لا ترد، والعز الذى لا يرام، والسلطان القائم، والملك الذى لا يزول، جميل الفعال، مانح الحسن والجمال، مبدع الكائنات، يعلم دقائق الأمور والخفيات، يسمع الأقوال والهمسات، ويرى الحركات والسكنات، فتبارك من لا تشبهه ذات، ولا تضاهيه الصفات، الذى أنزل القرآن على عبده تبياناً لكل شىء، وافياً للبشرية بكل الحاجات، وصدق الحق عز شأنه إذ يقول: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء**﴾.

والكتاب هو القرآن العظيم الذى جمع علوم الأولين والآخرين، وأخبر بالمغيبات قبل وقوعها، وكلما مرَّ حقب من أحقاب الزمان، تكشف سر من أسرار القرآن الذى لا يبلغ منتهاه إلا الله وحده لا شريك له: القائل سبحانه: ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أنْ تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددًا**﴾.

وقوله عز شأنه: ﴿**ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله**﴾.

والمعنى: لو أن أشجار الأرض جميعها صنعت أقلامًا، وكتب الكاتبون جميعًا على اختلاف أنواعهم وقدراتهم وتفاوت درجات نبوغهم فى الذكاء والإدراك، والمداد: حبر الكتابة كلما نفد بحر من المداد، تلاه سبعةُ أبحر أخرى فى المداد، ما استطاع الكتَّابُ ولا الأقلام ولا بحور المداد أنْ تدرك منتهى كلام الله عز وجل ونظرًا لأن جمال القرآن العظيم يفوق كل جمال، ولأنَّ جمال الكلام ينبع من جمال المتكلم، والقرآن العظيم كلام الله عز وجل، وجمال الله تعالى: وكلامه: ﴿**ليس كمثله شىء وهو السميع البصير**﴾.

وفضل كلام الله تعالى، على سائر الكلام كفضل الله عز شأنه على سائر خلقه، وكما أن جمال الله تعالى لا يُحد ولا يضاهى، فإن جمال كلامه القرآن

العظيم لا يُحد أيضًا ولا يُضاهى، وكفى بالرسالة المحمدية فخرًا أن القرآن العظيم دستورها ومعجزتها الباقية الذى أخبر بتطور العلوم ورقيها قبل أزمنتها ووقوعها فقال عز شأنه: **﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾**.

هكذا أخبر القرآن عن الذرة وعن الليزر وعن الكمبيوتر وعن التكنولوجيا بشتى صنوفها واختلاف أنواعها من أجل ذلك أعملت فكرى فى كتاب أسميته «**جمال القرآن وهيمنته على التاريخ والعلوم**»؛ لأنه أخبر عن الأمم السابقة وجمع كل العلوم.

وأسأل الله تعالى أنْ ينفع به إنه قريب مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

تمهيد

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه فى الحياة يستهدى بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة تقوده إلى الخير وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولا يحمل من الله كتابا يدعوه إلى عبادته وحده ويبشر وينذر لتقوم عليه الحجة؛ لأن عدالة السماء دقة فى مقتضى العدل: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾** وهكذا سنة الله فى الخلق أن لا يعذب حتى يرسل رسلاً يهدون أقوامهم إلى معرفة الحق سبحانه: ويخرجونهم من ظلام الجهالة إلى نور المعرفة والهداية.

فالقرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسانية عامة: وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك فى الكتاب والسنة: **﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾** **﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾** - **«وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للعالمين كافة»**.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وهنا معنى عمومية الرسالة المحمدية فلا غرو ومن أن يأتى القرآن وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس القويمة للأديان السماوية، وقد تحدى رسول الله ﷺ. العرب بالقرآن وقد نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة من مثله. فثبت له الإعجاز وبإعجازه ثبتت الرسالة وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذى نزل بالقرآن: **﴿نزل به الروح الأمين﴾**.

ومن أوصاف المنزل عليه: **﴿إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون﴾**

﴿إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾.

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة؛ لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص: وصدق الله إذ يقول:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

وقد تجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن: **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن**

يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به﴾.

والقرآن الحكيم بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيمًا: لأنه ﴿**تنزيل من حكيم حميد**﴾ ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى منهج واضح يرسم للإنسانية خطاها وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحية لكل زمان ومكان.

فهو دين الخلود. وما أجمل ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر: الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا: فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خُلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو قانون وثقافة، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

خادم القرآن طمعًا فى الغفران

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

التعريف بالعلم

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التى لا يزيدها التقدم العلمى إلا رسوخا فى الإعجاز، أنزله الله سبحانه على رسولنا محمد ﷺ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته وهم عرب خلص فيفهمونه بسليقتهم وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا عنها رسول الله ﷺ:

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾[1] شق ذلك على الناس: فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح**: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾»[2] وصية لقمان لابنه:

أى: إن الظلم الحقيقى هو الشرك بالله عز وجل: ﴿**إنَّ الله لا يغفر أنْ يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[3]، وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إن القوة الرمى**»[4].

وحرص الصحابة على تلقى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ، وحفظه وفهمه، وكان ذلك شرفاً لهم.

عن أنس رضى الله عنه قال: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أى عظم.

---

(١) الأنعام: ٨٢.
(٢) لقمان: ١٣.
(٣) النساء: ١١٦.
(٤) الأنفال: ٦٠.

فى تعريف القرآن العظيم

قرأ تأتى بمعنى الجمع والضم، والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل، والقرآن فى الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة، وقرآنًا، قال تعالى: ﴿ **إناَّ علَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنه. فإذا قرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَه**﴾[1]، أى قراءته: فهو مصدر على وزن فعلان بالضم: كالغفران: والشكران: تقول قرأته قرءًا وقراءةً وقرآنًا، بمعنى واحد سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر.

وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ. فصار له كالعلم الشخصى.

ويطلق اللفظ قرآن على مجموع القرآن وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن، وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وإذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[2].

وتسمية هذا الكتاب الجليل بالاسم العظيم قرآن: من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار الحق سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿**ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾[4] وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق إمَّا لأنه وضع علمًا مرتجلاً على الكلام المنزل على النبى ﷺ، وليس مشتقًا من قرأ. وإمَّا لأنه من الشىء بالشىء إذا ضمه إليه، أو من القرائن لأن آياته يشتبه بعضها بعضًا، فالنون أصلية وهذا رأى مرجوح والصواب الرأى الأول.

والقرآن العظيم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص بحيث يكون تعريفه حدًا حقيقيًا، والحد الحقيقى له استحضاره معهودًا فى الذهن أو مشاهدًا بالحس كأن تشير إليه مكتوبًا فى المصحف أو مقروءًا باللسان: فتقول هو ما بين هاتين الدفتين: أعنى جلدتى المصحف.

أو تقول هو بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين! قوله تعالى:

---

(١) القيامة: ١٧، ١٨. (٢) الأعراف: ٢٠٤.
(٣) النحل: ٨٩. (٤) الأنعام: ٣٨.

﴿من الجنة والناس﴾.

ويذكر له تعريفًا يقرب معناه ويميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، فالكلام جنس فى التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله تعالى يخرج كلام غيره من الجن والإنس والملائكة.

وبالمنزل على محمد ﷺ، يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه فقد يتصور البعض أن القرآن هو جملة كلام الله تعالى، إنما لله الكلام النفسى والكلام الذى لا ينفد ولا يعلم حقيقته. ومنتهاه إلا الله، ولله المثل الأعلى إذ يقول: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[2].

وبتقيد المنزل على محمد ﷺ، يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

والمتعبد بتلاوته يخرج قراءات الآحاد الواردة والأحاديث القدسية.

إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها؛ لأن المتعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك.

---

(١) الكهف: ١٠٩.   (٢) لقمان: ٢٧.

أسماء القرآن وصفاته

فقد سماه الله سبحانه بأسماء كثيرة منها: القرآن: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين**﴾ والكتاب: ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم**﴾.

والفرقان: ﴿**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا**﴾.

والذكر: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

والتنزيل: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين**﴾.

والحكيم: ﴿**يس والقرآن الحكيم**﴾.

والمجيد: ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾.

إلى غير ذلك من الأسماء التى وردت فى القرآن، وقد غلب من أسمائه، القرآن والكتاب: لسببين هما: -

١ - أمَّا تسميته بالقرآن؛ فلكونه متلوا بالألسن، أى منطوق به بلسان الحال: حال قراءته..

٢ - وأمَّا تسميته بالكتاب؛ فلكونه: مدونًا بالأقلام، أى مكتوبًا بها، فكلتا التسميتين من تسمية الشىء بالمعنى الواقع عليه.

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حق القرآن العناية بحفظه فى موضعين لا موضع واحد، أعنى يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعًا على السواء.

﴿**أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**﴾.

جمال القرآن وجبروته

إن لكل شيء في هذا الوجود حدًا، أما جمال القرآن فلا حد له، فهو جميل في ظاهره جميل في باطنه جميل في معناه، جميل في مبناه، جميل إذا سمعته، جميل إذا تلوته. يزداد حسنا كلما أعدته ورونقا كلما فتشته. إذا أردت أن تجد حدًا لوسامته أو مثيلا لقسامته أعيتك الحيل. وإن جزالته لتنفذ إلى القلوب العامرة بالإيمان فتبكيها وإلى القلوب القاسية فتدخل الخشية فيها.

وهو موسيقى له جمال وروعة وقسامة ورهبة إذا تلى عليك استرعى سمعك وجذب فؤادك وداخلتك الخشية وعلمت أنه فوق طاقة البشر لأول وهلة. وقد بلغ أسلوبه أقصى درجات الإجادة والإحسان فليس لمخلوق مهما أوتى من الفصاحة وقوة الحجة أن يقترب بأسلوبه من درجته، كما أن ألفاظه وضعت في خير مواضعها في مواضع لا يمكن أن تبدل بأحسن منها (أو مثلها) فلو أنك نزعت من إحدى آياته لفظة ثم قدحت زناد فكرك محاولا أن تبدلها بخير منها أو مثلها لما وفقت ولذهب رواؤها، فآياته كالآلات البالغة غاية الدقة إذا نزع من إحداها ولو دسار واحد وأبدل بدسار من نوع آخر فإنها تختل ولا ينتظم عملها.

وآيات القرآن لها ضياء خاص لا مثيل له فإذا اقتبست منه قبسا ضمنته كلماتك أضفى عليها جمالا وبهاء وأمكن للسامع والقارئ أن يتبين هذه الآيات كما تتبين السفينة ضوء المنارة في الليالي الداجيات.

ولقد تحدى القرآن العرب أرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثله **﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾** فعجزوا فخفف عليهم الأمر وطلب منهم عشر سور **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** فعجزوا فهون عليهم الأمر طالبا سورة واحدة **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله﴾** فصمتوا فتحدى الإنس والجن أن يتظاهروا ويأتوا بمثله **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾** فظل الإنس والجن عاجزين وسيظلون

عاجزين فإنه معجزة الدهور تمر الأيام وتبلى الليالى وهو باق على جدته **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** باق يتحدى الأجيال. تحدى الماضى فقهره والحاضر فخذله وسوف يقف المستقبل أمامه خاشعا مكتوف اليدين يسمع تحديه وهو صامت. ينظر إلى جلاله فيرتد إليه بصره إذ يبهره علاه ويغمره سناه **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد﴾**.

ولقد تحدى القرآن قريشا وتحدته فظفر بها وما غلبته. غزا قلوبها وأنطق سادتها بالحق وهم له كارهون.

فهذا شيخهم الوليد بن المغيرة، يمر بالنبى ﷺ وهو يقرأ القرآن فيأتى قومه ويقول:

«قد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس والجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه».

فقالت قريش:

صبأ الوليد. فقال ابن أخيه أبو جهل، أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فما كان من الوليد إلا أن قام وناداهم فقال: «تزعمون أن محمدا شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا فقالوا لا، فقال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه» ففرحوا بقوله بعد أن كانوا غاضبين وتفرقوا عنه معجبين بعد أن كانوا عليه ساخطين.

ولكن قريشاً لم تهدأ لها ثائرة وخشيت هذا السحر الحلال الذى ينفذ إلى أعماق القلوب فأخذوا يجتمعون ويتشاورون فيما يفعلون إزاء هذا السيل الجارف الذى لا قبل لهم به، فعن لهم أن ينتدبوا أحد كبرائهم عتبة بن ربيعة ليذهب إلى محمد يغريه بمختلف العروض.

فقال له:

«يابن أخى. إنْ كنت تُريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به شرفا، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الوحى الذى

يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه».

حتى إذا فرغ عتبة من عروضه لم يجد محمداً ردا أبلغ من أن يوجه إليه سيفه البتار وحجته التي لا تضارع فسلط عليه جبروتْ القرآن الذي يحطم كل ما يعترضه فتلا:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم استمر يتلو من سورة فصلت حتى إذا انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ سجد لربه سجودا طويلا ثم رفع رأسه واستوى فى مجلسه وأخذ يكمل السورة فلما وصل إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم وما أن فرغ من السورة حتى نظر إلى عتبة فإذا هو ملق يديه وراء ظهره يصغى فى هدوء وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغا عظيما فقال له النبى ﷺ:

«سمعت يا أبا الوليد؟»

قال: أنت وذاك.

صمت عتبة وذهب مطرقا برأسه يغمره جلال وتحتويه هيبة حتى إذا أتى قريشا قالوا: «وما وراءك يا أبا الوليد» فتحقق حدسهم وصدقت فراستهم حينما قالوا لبعضهم البعض وقد رأوا عتبة قادما: «نحلف بالله لقد جاءنا أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به» قال أبو الوليد: سمعت قولا ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ

عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

بهتت قريش «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه» فرد عليهم «هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم».

سدت على قريش المسالك فأخذوا يتخبطون. هؤلاء كبراؤهم إذا سمعوا القرآن يخشعون فماذا إذن يفعلون «نتحداه؟ نحن غير قادرين» إذن فقصص يحكى من أساطير المحاربين وأقوال الفلاسفة والمحدثين. وهذا النضر محدث القوم يتطوع فيحدثهم فيعرض عنه الناس وتصم دونه الآذان. إذن فقد هزمت قريش ولكن قريشا أبت أن تقر بالهزيمة فلنمتنع عن سماع القرآن بتاتا. تعاهدوا على ذلك ولكنهم أيضا فشلوا. إذ لا مندوحة لمن يسمعه مرة من أن يحن إلى استماعه مراراً فهؤلاء قوم منهم يسترقون السمع دونهم فرقًا وخشية حتى كبراؤهم والمحرضون الأولون لهم: أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق، كانوا يفعلون ما يفعله الآخرون يستخفون ليسمعوا ولقد ظلوا كذلك ثلاث ليال متتابعة يستمعون حتى الفجر وكل لا يعلم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاموا وظلوا كذلك حتى تعاهدوا آخر ليلة ألا يعودوا:

إذن إلام تلجأ قريش وقد تملكتهم الحيرة! لم يقدروا على أنفسهم إذن فليعتدوا على من يسمعهم القرآن ويجهر به لأنه يشهر سيفا لا حول لهم ولا قوة بمحاربته أو الصمود أمام جبروته لأنه يحكى الحق ويقول الصدق ويجادلهم بمنطق الحوادث وبرهان المنطق فى أسلوب جذل ولغة لم يألفوها صراحة وتركيبا وبلاغة، وهكذا قر رأيهم على الاعتداء واستعمال القوة البهيمية مع صاحب القرآن وأتباعه فنالوا منهم بعض الشىء ثم ازداد اضطهاد قريش للمسلمين فهاجر بعضهم إلى الحبشة وبعد ذلك بقليل فتح القرآن فتحا جديداً كان على قريش أشد من وقع النبال فقد غزا حصناً من أشد حصونها.

وهناك فى ناحية من نواحى مكة رجل يقرأ القرآن فلا ترفأ له عين منكب عليه جالس فى عقر داره تتدافع النساء والصبيان يردن سماعه فيشكو المشتركون إذ هم يرهبون ويخشون. لا يرهبون سيفا إذ هم أرباب السيف والحروب ولا خيلا إذ

هم الفرسان إلا ما جيد؛ ولكن يرهبون أبا بكر ومن هو أبو بكر حتى يرهبوه! لم يكونوا يرهبون شخصه ولكن كانوا يرهبون صوته يدوى بالقرآن فيغزو قلوبهم فإذا هم وجلون، فأى جبروت بعد هذا الجبروت **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾**.

نفدت الحيل فلنقتل هذا الرجل لنستريح مما يقول. تحدانا فعجزنا. حدثنا فلم يصغ أحد إلينا، منعنا أنفسنا فثارت علينا، اضطهدنا من يجهرون به فازدادت الشعلة التهابا إذن فلنقتل هذا الرجل فيذهب فى أثره هذا القرآن العجيب.

هيا بنا نحيط بيته بسيوفنا إحاطة السوار بالمعصم **﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾** لم يظفروا إلا بتراب حتى فوق رؤوسهم وهم لا يشعرون. لقد هاجر ولقد فتح الله له فتحاً مبينا **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** لقد ظنوا أنهم سيئدون هذا الحدث العظيم الذى ظل يحاربهم ثلاثة عشر عاما فكان أمضى عليهم من سيوف أعدائهم مجتمعين **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**.

لقد جن جنونهم: سينتقل إلى رحاب أوسع ويسحر الناس جميعا فلنتتبعه لنبحث عنه فى كل فج. لنرسل الرسل وراءه ونجزل العطايا لمن يأتينا به. هكذا فكروا وقدروا **﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾**.

وليس القرآن معجزا فى جمال أسلوبه ودقة تصويره وتنسيق ألفاظه وروعة بيانه فحسب، بل إن هناك ناحية من نواحيه ظلت مختفية فى زوايا الغموض أجيالا يمر الناس عليها مر الكرام، لم يقدروا جلالها لأنهم لم يكشفوا ما خفى من سرها إذ هى فوق ما وصلوا إليه من علم وما اكتسبوا من معرفة ولذلك كنت تراهم يؤولونها حسب ما هم عليه من علم ويتحاشون ظاهر معناها الواضح ويلجأون إلى التعمق فى تفسيرها حائدين عما تنبئ به لأول وهلة وما تحمله ألفاظها من معان؛ وذلك لأن ظاهر معناها كان بعيد التصور على عقولهم التى لم تصل بعد إلى درجة من العلم تهيؤها إلى فهم ما ترمى إليه هذه الآيات رغم نبوغهم ودقتهم التى تثير الإعجاب وجهودهم المشكورة فى تفسير الغامض من الكلمات والآيات.

وإليك مثلا لهذا تفسيرهم لكلمة (دحا) فى الآية الكريمة **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾** (فى سورة النازعات) إذ لم يجرؤ أحد من المفسرين أن يفسرها بمعناها اللغوى بل فسروها بمعنى (بسط) وهم معذورون فى تحويرها عن معناها الأصلى وقد وقع مؤلفو القواميس أيضا فى نفس الخطأ وتصفحت قاموسًا صغيرًا أو كبيرًا وجدتها على اختلاف مدلولاتها وتوسعها بعد أن تأتى على جميع معانى كلمة (دحا) ومشتقاتها نقول: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾**، أى (بسطها) وهم يشتقون هذا المعنى من هذه الآية الكريمة فحسب وليس لهم سند آخر غيرها إذ هم يعتبرونها المصدر الوحيد لهذا المعنى الذى يؤولونها به ولا تجد مصدرا آخر فى استعمال العرب لها بهذا المعنى.

ولنعرض أمام القارئ نوعا مما دونته تلك القواميس عن معانى هذه الكلمة لكى يرى مبلغ محاولة هؤلاء المفسرين التوفيق بين ظاهر ما يرون وبين معنى الآية الكريمة التى نحن بصددها وهم لا يعلمون أنهم كانوا مجانبين للصواب.

١ ـ دحا البطن عظم واسترسل إلى أسفل.

٢ ـ الأدحى والأدحية والأدحوه مبيض النعام فى الرمل ومنزل القمر.

٣ ـ وبمعنى مكان يجرى فيه القمر ومكان يظهر فيه القمر للناس.

٤ ـ والأرض بعد ذلك دحاها أى بسطها.

وكل هذه المعانى عدا الرابع منها لا تجد فيها إشارة من قريب أو من بعيد إلى معنى بسط ولكنها تدل على أشياء مستديرة أو صفتها الاستدارة، فمبيض النعام فى الرمل مستدير شأنه شأن البيض ولكنه ليس تام الاستدارة بل إنه منبعج من ناحية ومفلطح من ناحية ولا يزال العرب حتى اليوم يطلقون على البيضة كلمة (دحية).

فدحا معناها العربى فى الحقيقة (جُعل كشكل البيضة وهو أدق تعبير على شكل الأرض، فهى كشكل البيضة منبعجة عند خط الإستواء منبسطة عند القطبين، وقد قال العلماء الروس: إنَّ الأرض عند خط الاستواء ليست مستديرة ولكنها بيضاوية، وهذا مطابق لقول القرآن تمام المطابقة وهذه الحقيقة لم يدركها بدقتها إلا العلم الحديث بينما أظهرها القرآن الكريم منذ ستين وثلاثمائة وألف عام تقريبا.

نعم لقد كان طاليس الفيلسوف الإغريقى أول من عرف الناس شكل الأرض ولكن محمدا ﷺ كان وقومه أميين لم يقرأوا عن الإغريق ولا عن فلاسفتهم، كما أن طاليس اقتصر عن أن قال: إن الأرض كروية بينما وصف القرآن الكريم شكلها الحقيقى كما توصل إليه العلم الحديث فهى ليست مروية تامة الاستدارة ولذلك فقد كان قول طاليس به بعض الحق، بينما وصف القرآن الكريم تضمن الحق كله الذى استقصته الأجيال العديدة حتى وصلت إليه أخيرا بعد جهد جهيد وقد وصفها القرآن فى كلمة واحدة ذات ثلاثة حروف أغنت عن كلمات عدة. أليست هذه معجزة فى لفظها معجزة فى معناها. فانظر إلى أى حد بلغ اعجاز القرآن (فدحا) حلت محل (خلقها قروية مفلطحة فى جانبين منبعجة فى الجانبين الآخرين) وإن معناها هذا الذى طمسه المفسرون كان وقتئذ فوق طاقة البشر وظل كذلك قرونا طويلة حتى اتسعت رقعة العلم فحقق شكلها الذى كان القرآن الكريم أول من أعلنه بدقة حال دون إظهارها تحميل المفسرين الألفاظ معانى غير معانيها كى تتفق وظاهر ما يبصرون وقد كانوا فى ذلك جد معذورين.

وإليك مثلا آخر على الخطأ فى التفسير الذى نشأ من مخالفة الظواهر للمعنى الذى تنطق به الآية هو تفسير الآية الكريمة ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ

مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

فهى تدل على حاضر مرتبط بماض وليس فى تركيبها ما يشير إلى شىء سيحدث فى المستقبل أو إلى فعل مضارع محمول على معنى فى المستقبل، كما أشار إليه المفسرون إذ حملوا الرؤية على يوم القيامة ولعمرى إذا كانوا حملوا الرؤية على يوم القيامة فعلام يحملون الصنع والإتقان وهو منصب بكليته على الماضى؟ ومما يتخذه المفسرون قرينة تعزز حجتهم الآية الكريمة الآتية:

﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله وكل أتوه داخرين[2]﴾.

وهى الآية السابقة للآية التى نحن بصددها فاعتبروا من ذلك أن سبق هذه الآية فى الترتيب لآيتنا دليل على الارتباط الزمنى ولكن ينقض هذا الاستنتاج دليلان.

أولهما ـ أن الآيات القرآنية ليست الأسبقية فيها واللاحقية دليلا دائما على الارتباط فيجوز أن يكون هناك آيتان متجاورتان وليس بينهما ارتباط فى وقت النزول أو سببه.

ثانيهما ـ أنه يسبق آية **﴿ويوم ينفخ فى الصور﴾** آية **﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**، فالله سبحانه وتعالى يعدد بعض آياته ليتذكر الإنسان ويتدبر فساق الليل والنهار مثلا للإنسان ليذكر فضل الله ونعمه عليه ثم أتبع ذلك بآية أخرى ليدله على عظمته وعظمة خلقه وهو تسييره للجبال من غير أن يشعر الإنسان مبينا له قصوره.

ويستدل قوم على انصباب هذا المعنى أيضا على يوم ينتهى العالم بهاتين الآيتين الكريمتين.

١ ـ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (الكهف).

---

(١) سورة النمل ـ جامدة معناها ثابتة فى مكانها.

(٢) داخرين. صاغرين.

٢ ـ وإذا الجبال سيرت (التكوير).

ولكى نرى حقيقة هذا التسيير يجب أن نضم إلى هاتين الآيتين أربع آيات أخرى.

١ ـ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[1].

٢ ـ ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[2].

٣ ـ ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾[3].

٤ ـ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [4].

فباعتبار هذه الآيات وحدة مكملة لبعضها البعض لتوافقها الزمنى نستنتج.

أ ـ أن الجبال ستسير يوم القيامة (عند انتهاء العالم).

ب ـ أن هذا التسيير إنما هو عبارة عن نسفها وتطايرها.

جـ ـ أن الأرض يومئذ لن يكون فيها عوج ولا أمت ولكن ستكون منبسطة لا انخفاض فيها ولا ارتفاع إذن فالجبال لن تكون موجودة وبالتالى لن يخالها المرء ثابتة وهى تتحرك إذ ستنسف نسفا ولن يكون لها وجود البتة فكيف يتفق وجودها ونظر الإنسان إليها حاسبا إياها أنها ثابتة مع تفتتها وتطايرها وفنائها؟

إذن فالآية تدل على حقيقة واقعة وهى سير الجبال الآن سيرا حثيثا لا يحس به الإنسان بل يظنها واقفة فى مكانها.

وإذا كانت الجبال تسير فالأرض كذلك تسير، وقد ضرب الله الجبال مثلا لأنها أبرز ما على الأرض وهذا ما يشار إليها فى البلاغة من ضرب البعض مثلا ليقصد

---

(١) سورة طه. الآيات ١٠٤ و١٠٥و١٠٦ ـ فيذرها (أى الأرض). قاعا: خاليا. صفصفا. مستوية كان أجزاؤها على صف واحد. عوجا. اعوجاجا، أمتا: نتوءا أو ارتفاعا.

(٢) سورة المرسلات طمست: ذهب نورها. فجت: تصدعت. نسفت كالحب ينسف بالمنسف.

(٣) الواقعة، بست: فتت، هباء: غبارا، منبثا: منتشرا.

(٤) القارعة، العهن المنفوش: الصوف المندوف لتطاير أجزائها فى الجو.

به الكل كقولك رأيت عمامة تسير، أى رأيت رجلا يسير وهذا دليل على دوران الأرض حول نفسها، وقد عبر القرآن عن هذه الحقيقة فى مواضع عدة وبأوضاع مختلفة.

هذا ما قاله القرآن الكريم وظل خافيا على العلماء حتى القرن السادس عشر حينما أعلنه كوبتكس الذى استجمع شجاعته وأعلن رأيه بعد أن ظل يخفيه أربعين عاما خوفا من بطش رجال الدين وكان رأيه ينحصر فى أن الأرض تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق وأن ما يظهر للناس من حركة الشمس والقمر والنجوم من الشرق إلى الغرب حول الأرض ناتج عن دوران الأرض حول نفسها وأن الأرض والكواكب السيارة ليست إلا أجراما تدور حول الشمس.

وعندما سمع رجال الدين والعلماء هذا الرأى أخذوا يحملون عليه واتهموه بالمروق عن الدين!

والشمس تجرى

الأرض تجرى والشمس تجرى والقمر يجرى وهذا ما بينه القرآن الكريم مفصلا تفصيلا دقيقا فى كلمات قليلة أغنت عن فصول طويلة كل ذلك فى ثلاث آيات لا يتجاوز عدد كلماتها تسعا وثلاثين على حين ظل العلم إلى عهد قريب بتحسس طريقه بالافتراض أن الشمس ثابتة فى مكانها بعد أن أقام الحجة على أن الأرض تدور حول نفسها محدثة عن حركتها هذه الليل والنهار - وأن حركة الشمس من الشرق إلى الغرب إنما هى حركة ظاهرية. ولكنه لم يدرك وقتئذ أن للشمس حركة أخرى يعتبر اكتشافها من أمهات حقائق العلم الحديث.

هنا تظهر عظمة القرآن ودقته المتناهية فى تصوير حقائق الكون الراهنة وجمع المعانى المتعددة فى لفظ واحد كلما قلبته بدت لك معجزة فى كل جانب.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

فإذا تعرضنا بالتحليل إلى كلمة «لمستقر» وجدنا اللام فى اللغة العربية لها ثلاثة عشر معنى من بينهما الملكية كما تقول هذا السيف لى، أى إنى أملك هذا السيف. وشبه الملكية كما فى قولك السرج للدابة، وكذلك تأتى بمعنى «فى» كقوله تعالى: **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾**، أى فى يوم القيامة، كما تأتى بمعنى انتهاء الغاية مثل قولك وصلت للبيت، وبمعنى إلى كقولك ذهبت للمنزل يعنى إلى المنزل، وهى تستعمل للسببية كقولك أتيت لأراك وغير ذلك من الأوجه وعلى ضوء هذه المعانى يمكننا أن نستنتج من **﴿لمستقر لها﴾** حقيقتين فلكيتين عرفنا إياها القرآن الكريم من قرون بعيده وأثبتهما العلم الحديث فلم يعد هناك من سبيل لإنكارهما وتأتى أولاهما إذا نحن اعتبرنا اللام فى كلمة (لمستقر) بمعنى (فى) وبهذا يكون معنى الآية الكريمة أن الشمس تدور فى مستقر لها، أى فى مكان مستقر لها وهذا ما بينه العلم الحديث فهى تدور حول نفسها فى ستة

---

(١) سورة يس: ٤٠.

وعشرين يوما.

وتأتى ثانيتهما إذا اعتبرنا اللام بمعنى (إلى) أو لانتهاء الغاية وبهذا يكون معنى الآية الكريمة أن الشمس تجرى نحو مكان معين سوف تستقر عنده فى النهاية، وهذه الحقيقة هى من الحقائق التى يعد اكتشافها من مفاخر العلم الحديث. انظر إلى ما يقوله الأستاذ سيمون العالم الفلكى فى كتابه (لو سئلت ما هى أعظم الحقائق التى اكتشفها العقل البشرى لقلت إنها الحقيقة التالية وهى أن الشمس والكواكب السيارة وأقمارها تجرى فى الفضاء نحو برج النسر الواقع بسرعة غير معهودة لنا على الأرض ولكى يتصور القارئ هذه الحقيقة فما عليه إلا أن ينظر إلى برج النسر الجميل ويتصور أننا نقترب منه عشرة أميال كل ثانية وأننا نقترب منه يوميا بما يقرب من مليون من الأميال [1] وبما لدينا من معلومات عن هذه المسافة يمكنا القول أن المجموعة الشمسية لن يكون فى استطاعتها الوصول إلى المكان الذى يقع فيه هذا البرج الآن إلا بعد مدة تتراوح بين مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر.

هذه هى المعجزة العلمية، أما المعجزة البلاغية فهى أن اللفظ الواحد (لمستقر) يجمع الوجهين. كونها تدور حول نفسها وكونها تندفع فى الفضاء بسرعة هائلة إلى هدف خاص.

وتحرك المجموعة الشمسية كلها هو ما عناه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وكل فى فلك يسبحون**﴾، أى أن الشمس والقمر والأرض التى كنى عنها بالليل والنهار اللذين هما ملازمان لها يجرون فى فلك واحد وهذه هى الحقيقة التى أثبتها القرآن وظلت مطوية حتى أظهرها العلم الحديث وقد ذكر ذلك فى القرآن فى مواضع عدة.

---

(١) تندفع الشمس فى الفضاء بسرعة ٧٥٠ ميلا فى الدقيقة نحو كوكبة الشلياق التى فيها النسر الواقع ويتبعها فى ذلك سياراتها وتوابعها والكويكبات، أى الأسرة الشمسية جميعها.
سورة الزمر والملك ولقمان والأنبياء.

منازل القمر

﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾

معنى هذه الآية أن القمر غير ثابت فهو ينزل منازل مختلفة يتغير فيها مظهره فيظهر للناس بأوجه مختلفة حتى يصير بدرا ثم يتناقص ويعود فى النهاية كما بدأ أى يعود هلالا كما بدأ هلالا، وقد شبه القرآن الكريم الهلال بالعرجون القديم، أى الشمراخ المعوج القديم الذى يمتاز بانحنائه وبهتان لونه.

ولا بد أن ينزل القمر منازل مختلفة من أن ينتقل من مكان لآخر وبذلك فالقرآن يعلل أوجه القمر بأن سببها هو انتقال القمر فى أمكنة مختلفة بالنسبة للأرض وهو فى انتقاله يتغير مظهره فيزيد حتى يصير بدراً ثم يعود فيتناقص تدريجيا حتى إذا كان فى آخر منازل دق واستقوقس وصار هلالا.

وهذا ما يطابق ما وصل إليه العلم أخيرا وهو أن سبب ظهور القمر بأوجه مختلفة هو دورانه حول الأرض مع مواجهته لها بوجه واحد.

الليل والنهار

﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

معنى هذه الآية أن الليل والنهار يجريان وأن أحدهما لا يسبق الآخر وأنهما موجودان دائما معا على الأرض وفى وقت واحد.

وهذه الحقيقة كانت بعيدة التصور فيما مضى على عقول كانت تجهل الفلك جهلا يكاد يكون تاما، فحينما كان الليل يغشى مكانا من الأمكنة كان يظن أهله أن الليل قد غشى الأرض جميعها ولكن الثابت الآن أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلا على حين أن نصفها الآخر يكون نهارا فى وقت واحد، فالساعة السابعة صباحاً فى القاهرة تقابلها الساعة الثانية عشرة فى نيويورك، والساعة السابعة صباحا فى اليابان تقابلها الساعة الثانية عشرة مساء فى القاهرة.

إذن لقد صدق القرآن الكريم ومن أصدق من الله قيلا، إذ إن الليل والنهار متلازمان يجريان كفرسى رهان فلا يسبق أحدهما الآخر فهما موجودان معا على الأرض يقتسمانها قسمة عادلة وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى: **﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾** إذ لم تستعمل (أو) هنا للإبهام بل قصد منها عدم التحديد فإن الله لم يشأ أن يحدد لأن العالم لا يغشاه ليل فى وقت واحد ولا يصيبه كله نهار فى وقت واحد والحديث هنا عن الأرض كلها وهو حكم عام يلزم لصحته عدم التحديد كما جاء فى هذه الآية الكريمة وفى غيرها كقوله تعالى فى سورة الأعراف: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾**[1].

وإن فى هذا دليلا على كروية الأرض إذ لو كانت منبسطة لعمها ضوء الشمس دفعة واحدة ولصارت كلها نهارا إذا عمها الضوء ثم تصير كلها ليلا إذا توارى عنها ولقد أرانا القرآن الكريم كذلك أن شروق الشمس لا يحدث فى وقت

---

(١) الأعراف: ٩٧، ٩٨.

واحد على أجزاء الأرض المختلفة بقوله تعالى فى سورة الصافات: ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وهذا يدل على أن الشمس لا تشرق على الأرض كلها دفعة واحدة بل تختلف أوقات شروقها.

واختلاف أوقات الشروق يدل على دوران الأرض حول نفسها وعلى أن الليل والنهار هما نتيجة لهذه الحركة، كما أن وجود الليل والنهار فى وقت واحد على الأرض لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية، ولقد ذكر القرآن ذلك صريحا فى لفظ لا يحتاج إلى تأويل حيث يقول: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[1] فأى لفظ أوضح من هذا؟ إن الله تبارك وتعالى يكور النهار والليل بعضهما على بعض. علام؟ على الأرض طبعا. وهذا دليل على أن الأرض كروية إذ ليس من الممكن أن يعبر عن هذه الحركة بالتكوير إن لم تكن كذلك.

---

(١) الزمر: ٥.

حركة الشمس الظاهرية

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[1].

وهذه آيات أخرى ظل معناها السامى فى طى الكتمان هذا الزمن الطويل وظلت درارى مخبوءه لم يظهر للعيان سناها الباهى الجميل.

ويتلخص معناها فى أن النهار هو الذى يظهر الشمس وأن الليل هو الذى يخفيها.

فأى دقة فى التعبير أكثر إحكاما من هذه؟ فنحن نعلم الآن أن حركة الشمس اليومية من الشرق إلى الغرب إنما هى حركة ظاهريه سببها دوران الأرض لا تحرك الشمس، فالشمس بالنسبة لنا ثابتة لا تتحرك إذ هى لا تدور حول الأرض وبذلك فإن الليل والنهار لا ينتجان من دورانها حولنا حسب ما كان القدماء يعتقدون. وإنما دوران الأرض حول نفسها هو الذى ينتج عنه أن يتعرض إحدى نصفيها لضوء الشمس فيصير نهارا ويبتعد النصف الآخر عن مدى الضوء فيصير ليلاً. فدوران الأرض إذن هو الذى يظهر الشمس فيكون النهار وهو الذى يخفيها فيكون الليل وهذا نص ما قاله القرآن فلو كان من عند بشر كما يدعون لقال: إن الشمس هى التى تسبب النهار بظهورها لا أن النهار هو الذى يظهرها ولقال: إنها تختفى فتسبب الليل لا أن الليل هو الذى يخفيها.

وهكذا كل يوم يظهر لنا العلم بعضا من سنا هذا القرآن العظيم.

---

(١) الشمس: ١ ـ ٤.

السماء

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة الملك.

إن الفلك يتحدث بعظمة الله وإن فى حقائق السماء تتجلى عظمة القرآن الشماء وعظمة الكبير المتعال ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ حقائق بينات وشواهد ثابتات كالجبال الراسيات فتبارك الله أحسن الخالقين.

هناك سبع سموات تعلو بعضها بعضا بل هناك أكثر من هذا فمن الأرض سبع مثلهن ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[1] ، إذن فهناك فى كل سماء كوكب معمور يشبه الأرض، أو بمعنى آخر هناك عوالم أخرى يتنزل بينها أمر الله كما يتنزل بيننا أليس هذا شيئا عظيما؟

وهل وقف ما أعلمنا به القرآن عند هذا الحد؟ كلا فهو كالسيل المتدفق المنهمر إذ يعلمنا أن الله لم يقتصر خلقه على هذه السموات بل خلق من فوقها شيئا عظيما آخر وهو عرش الله ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ ولكى نعلم مقدار عظمة هذا العرش يجب أن نرجع إلى ما قاله رسول الله ﷺ. فقد جاء أن أبا ذر الغفارى سأل الرسول صلوات الله عليه عن الكرسى فقال له الرسول «**والذى نفس محمد بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فى فلاة وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقه**»، أى أن السموات السبع والأرضين السبع إذا بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة الملقاة فى صحراء كبيرة وكذلك فنسبة الكرسى للعرش كحلقة فى صحراء واسعة. إذن فسمواتنا السبع هذه وما فيها ما هى إلا جزء صغير لا يكاد يذكر من هذا العالم الذى لا يعلم مداه إلا خالقه. هذا ما قاله القرآن فلننظر إلى ما قاله علم الفلك

---

(١) الطلاق: ١٢.

الحديث لنرى إلى أى حد يتفقان فسنجد أنهما يتحدان بل إن علم الفلك ما زال بعيدا عن إدراك بعض ما أدلى به القرآن، فالقرآن يسبقه إذ الفلك عاجز فى بعض النواحى عن أن يلاحقه مع تقدمه وعظم استعداده.

لقد خلق الله سبع سموات وكرسيا أكبر منهن على الأقل ملايين المرات وخلق عرشا عظيما حجمه أكبر من حجم الكرسى على الأقل ملايين المرات كذلك وخلق فى كل سماء كوكبا سيارا مثل أرضنا مأهولا بالسكان يتنزل عليه أمر الله. هذا ما قاله القرآن، أما ما يقوله الفلك فيتلخص فيما يقوله أحد علمائه[1] من أن سماء ناذات النجوم ما هى إلا واحدة على الأقل من ملايين من أمثالها من المجموعات الشمسية المنتشرة فى الفضاء فى جميع الأنحاء، وفى السماء تسعة آلاف نجم يمكن رؤيتها بالعين المجردة وتشتمل مجموعتنا على مائة بليون من النجوم بعضها أصغر من شمسنا وبعضها أكبر منها أضعافا مضاعفة ومن وراء المجرة التى نحن فيها وعلى بعد أعظم مما يستطيع العقل البشرى أن يتصوره مجرات أخرى وهى ليست بعيدة عنا فحسب بل بعضها بعيد أيضا عن البعض الآخر أعظم البعد وقد أصبح معروفا على وجه التحقيق وجود مائة ألف أو أكثر من هذه المجرات وهناك ٥٠٠ ألف مجرة أخرى تحت المراقبة.

وليت الأمر مقصورا على هذا العظم الذى يحير الأفهام بل إن حجم الكون آخذ فى الزيادة شيئا فشيئا وكلما ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه هذا ما يقوله عالم ثان مطابقا لما قاله أعلم العلماء إذ يقول: ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**﴾ (سورة الذاريات).

إذن فسماؤنا هذه التى تعتبر المجرة سقفها ما هى إلا واحدة من سموات لا يكاد يحصيها العد فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** (١١٥) **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ «سورة المؤمنون».

ولقد برهن العلم أيضا على وجود كواكب سيارة تدور حول كثير من النجوم ولكن ما بقى أمام العلم أن يبرهنه ولا يزال عاجزا عن أن يصل إليه إلى الآن هو سكنى هذه الكواكب وسيظل عاجزا أمام هذا الأمر على ما نظن فإنه لا يزال إلى الآن يبحث فى سكنى المريخ، فبعض العلماء يؤيده وبعضهم ينفيه والمريخ أقرب

---

(١) بروس بلفن مجلة المختار عدد ديسمبر ١٩٤٣.

كوكب سيار يلينا فى مجموعتنا الشمسية فكيف يكون الحال إذن مع كواكب النجوم الأخرى والتى فى السموات الأخرى؟

وينص القرآن على عدم وجود اختلاف فيما خلق الله من نجوم وكواكب إذ يقول الله تبارك وتعالى **﴿هل ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾**، أى هل ترى فى خلقه من اختلاف وهذا ما يتآخى فيه الفلك والقرآن، فالنجوم فى شكلها وحركتها متشابهة فهى جميعها كروية وجميعها تدور حول نفسها وجميعها تجرى فى الفضاء بسرعة مخيفة كأنها شظايا قنبلة متفجرة وكأنما بعثرها انفجار هائل وهذا ما عناه القرآن الكريم بقوله: **﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾**[١] ، أى أن الله تعالى يقسم بالنجوم الرواجع التى تجرى فى الفضاء والتى تختفى بالنهار تحت ضوء الشمس وترجع إلى الظهور فى الليل.

ويبين القرآن عظم السموات وعجز الإنسان عن أن يقدر عظمتها أو يسبر غورها بقوله تعالى: **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾** «الواقعة» ويقول تباركت ذاته: **﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾** «الملك»، أى أنك إذا نظرت إلى السماء ارتد إليك طرفك خائبا كليلا وشعرت بالعظمة التى تبهرك وهل هناك عظمة تتقطع دونها الأنفاس وتبهر لها الأبصار كتلك العظمة التى لا يمكن أن يتصورها الخيال مهما اتسع ولكى تعلم بعض الشىء عن الكون وعن النجوم ومواقعها والعظمة التى يحتويها القسم بها ننقل إليك ما كتبه الأستاذ سيمون نيوكوم فى كتابه عن الفلك إذ يقول:

(لو أننا أردنا أن نصنع نموذجا صغيرا جدا للعالم وتصورنا الأرض التى نقطنها ممثلة عليه بحبة من الخردل فإن القمر سيكون على هذا النموذج ذرة قطرها حوالى ربع قطر حبة خردل هذه وعلى مسافة بوصة منها وتكون الشمس تفاحة كبيرة مضيئة على مسافة أربعين قدما، أما الكواكب السيارة الأخرى فإنها تتراوح فى الحجم من الذرة التى لا ترى إلى حجم البسلة وتقع على مسافات من التفاحة المضيئة (الشمس) تختلف من عشرة أقدام إلى ربع ميل ويتحرك كل منها حول الشمس وتتم دوراتها المختلفة حولها فى أزمان تتراوح بين ثلاثة أشهر، ١٦٠ سنة وبما أن حبة الخردل (الأرض) تتم دورتها فى سنة فيجب أن نتصور القمر مصطحبا إياها مع دورانه حولها كل شهر مرة.

---

(١) سورة التكوير: ١٥، ١٦.

وتشغل المجموعة الشمسية كلها على هذا الأنموذج مساحة نصف ميل وبعد ذلك لا بد لنا أن نقطع فضاء مساحة أعرض من قارة أمريكا دون أن نرى جرما سماويا واحدا غير ما نصادفه من مذنبات مبعثرة حول الحافة وعلى بعد كبير من حدود هذه القارة نعثر بأقرب نجم إلينا ويمكن أن نمثله كشمسنا فى حجم تفاحة كبيرة[1] وعلى مساحة كبيرة أعظم من هذه فى جميع الاتجاهات توجد نجوم أخرى ولكنها فى المتوسط تبعد عن بعضها البعض، كما تبعد النجمة الأولى عن الشمس وعلى ذلك فإن جزءا من هذا الأنموذج الصغير تبلغ مساحته مساحة الأرض لن يتسع لأكثر من موقع نجمين أو ثلاثة فقط.

وإنا لنرى من ذلك أننا لو طرنا خلال هذا الكون ممثلا فى هذا الأنموذج الصغير الذى تصورناه فإننا حتما نمر على هذا الشىء الصغير الحقير كأرضنا دون أن نراه حتى لو فتشنا تفتيشا دقيقا ونكون مثل شخص على متن طائرة خلال وادى المسيسبى يبحث عن حبة خردل يعرف أنها كانت مخبأة فى مكان ما على القارة الأمريكية وحتى تلك التفاحة المضيئة التى تمثل الشمس ربما لا ترى أن لم نمر بالصدفة قريبا جدا منها.

ويتلخص ما يقوله هذا العالم فى أننا لو تصورنا الأرض حبة خردل فإن حجم الشمس يكون كتفاحة كبيرة على أربعين قدما منها، أما ثانى تفاحة (أقرب نجم إلينا) فيكون على آلاف الأميال من التفاحة الأولى (الشمس) وهكذا تبتعد النجوم بعضها عن بعض بحيث إن أنموذجا تكون مساحته مساحة الأرض لن يتسع لأكثر من ثلاثة نجوم على فرض أن الأرض حبة خردل وأن حجم كل من الشمس والنجوم صغر إلى حجم التفاحة فما بالنا إذا علمنا أن النجوم التى فى سمائنا تبلغ مائة بنيون؟ هذا عدا ما فى السموات الأخرى. إذن فأنموذجنا المصغر الذى تتمثل الأرض فيه بحبة خردل إذا أردنا أن نستوفيه لبلغ حجمه أكبر من حجم المجموعة الشمسية ولعل أدق وصف للأرض بالنسبة للكون هى أنها ليست إلا هباءة دقيقة لا ترى إلا بالمجهر فى هذا الفضاء الفلكى الواسع بالنسبة إلى الأجرام السماوية المتناثرة فى أنحاء الكون. أليس هذا ما قاله الرسول الكريم: **«لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء»** وها هو ذا العلم بآلاته ونظاراته وعدساته يهب من رقدته فيحقق صدق كلمته.

---

(١) أقرب نجم إلينا هو الأقرب القنطورى وهو يبعد عنا بخمسة وعشرين مليون ميل، أى قدر بعد الشمس عنا بمقدار ٢٧٠ ألف مرة.

السماء والأرض

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

هذه آية من آيات القرآن تبين هيمنته العلمية حتى على غيره من الكتب السماوية وتدحض قول الذين يرمون محمداً بأنه استقى معلوماته مما سبقه من الكتب المقدسة ومن الأحبار والرهبان.

فهى تقول أن السماء والأرض كانتا قطعة واحدة ثم فصلت إحداهما عن الأخرى وهذا هو عين ما تقوله النظرية الحديثة لتكوين المجموعة الشمسية، وفحواها أن المجموعة الشمسية كانت سديما سابحا فى الفضاء كما كانت بقية الأجرام السماوية ثم وقع هذا السديم بطريقة ما تحت تأثير جاذبية جرم كبير من الأجرام السماوية، الأخرى فتفككت الأجزاء الخارجية لهذا السديم وامتدت منه أذرع اكتسبت شكلا حلزونيا من جراء دوران السديم، وأخيراً انقشع السديم تدريجيًا باجتماع الأجسام الصغيرة حول الأجزاء الكبيرة فكانت الكواكب التسعة: عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو والكويكبات التى بين المريخ والمشترى والتى يزيد عددها على الألفين.

هذه هى النظرية الحديثة وهى نفس ما قاله القرآن الكريم فى القرن السابع، فالأرض كانت جزءا من سديم عظيم سابح فى الفضاء. ثم تفرق هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء انفصل بعضها عن بعض فتكونت المجموعة الشمسية بشكلها الحالى: الشمس والكواكب والأرض فمن علم محمد هذا؟أليس هو العزيز الحكيم علام الغيوب؟ وكم فى القرآن من أسرار ستظل الأيام تفتح مغالقها شيئا فشيئا حتى يتبين للناس أنه الحق وأن محمدا النبى الأمى لم يتعلم هذا عن بشر ولم يسبقه به أحد.

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

والأرض وما طحاها[1]

فسر المفسرون (طحا) كما فسروا (دحا) بمعنى بسط. والظاهر أنه قد أشكل عليهم هذان اللفظان فنسبوا إليهما هذا المعنى وهو معنى بعيد عن مدلولهم كل البعد. وفي رأيي أنه معنى استجد عليهما لم تستعملهما فيه العرب فطحا إنسانا ألقاه على وجهه.

والقوم يطحى بعضهم بعضا. يدفع بعضهم بعضا.

وطحية من السحاب قطعة منه

وطحا به قلبه ذهب به كل مذهب.

فلو اعتبرنا طحا بمعنى ألقى ودفع كان معنى الآية قسما من الله تبارك وتعالى بطحوه الأرض، أي بإلقائه أو دفعه لها في الفضاء.

وإذا اعتبرناها بمعنى اقتطع كان معناها أن الله يقسم باقتطاع الأرض التي كانت جزءا من المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها وكانت في أول أمرها قبل أن تتصلب قطعة من سديم والسديم لا يختلف في منظره عن السحاب.

إذن فمعنى هذه الآية معزز لمعنى الآية السابقة ولا يختلف عنها في شيء.

(١) الشمس: ٦.

الشهب والنيازك

ماذا قال القرآن عن الشهب والنيازك؟ قال الحق وقت أن كان الناس عن الحق تائهين. قال إن مصدرها الكواكب **﴿لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾**[1] **﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾**[2].

قال القرآن الكريم ذلك فى القرن السابع، أما الناس فإنهم حاروا فى الشهب والنيازك وظلوا يرونها وهم منصرفون عن معرفة أسبابها لا يدرون من كنهه شيئا ولم يبدأ بحثهم عن ماهيتها وسبب سقوطها إلا فى أوائل القرن التاسع عشر وظلت الآراء تتضارب فمن قائل أنها تنقذف من براكين فى القمر، ومن قائل أن أصلها الأرض انفصلت عنها ثم أتت عليها أحوال معينة فحولت إلى شهب تجذبها الأرض فتنزل إليها ولكن الفلكيين أثبتوا أن هذه النظريات إنما هى ضرب من التخمين ورجعوا إلى ما قاله القرآن الكريم إذ وجدوا أن الشهب إنما هى أجسام حجرية أو معدنية سابحة في الفضاء تدخل أحيانا في دائرة جذب الأرض فتسقط نحوها وتحترق أثناء مرورها فى الهواء. فإذا وصلت إلى الأرض سميت بالنيازك أو الصواعق وإلى وجود هذه الأجسام الحجرية أو المعدنية يشير القرآن الكريم في سورة الملك بقوله: **﴿أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير﴾**.

فهناك إذن كتل من المادة تعد بالملايين تسير حول الشمس إذا اقتربت من فلك الأرض جذبتها الأرض ودخلت بذلك فى جوها بسرعة تتراوح بين ١٠ أميال و٤٠ ميلا فى الثانية وينتج من اندفاعها احتكاك شديد تتولد منه حرارة عظيمة تشعلها وتبددها قبل الوصول إلى الأرض وتعرف هذه بالشهب، أما إذا كانت

---

(١) سورة الملك: ٥. (٢) سورة الصافات: ١٠.

كبيرة فلا تستطيع الحرارة أن تبددها وحينئذ تسقط على الأرض وتسمى بالنيازك.

وما مصدر تلك الكتل؟ مصدرها الكواكب فهى قد انقذفت فى الأصل من جوف السيارات العظام كما تنقذف المواد من الشمس هذه الأيام.

هذه هى نظرية العلم الحديث فى الشهب والنيازك وهى ما قاله القرآن ولكن الذى بقى أمام العلم أن يكشفه والذى علله القرآن الكريم هو متى وكيف تدخل هذه الأجسام فى فلك الأرض حتى يتسبب انجذابها نحوها. أتدخل فى فلك الأرض من تلقاء نفسها أم من اقتراب أجسام أخرى منها تساعد على اجتذابها إليها؟

هذا ما بقى للعلم أن يميط اللثام عنه وحينما يكون ذلك فى استطاعته فلن نجدها هناك بينه وبين القرآن أى تضارب أو اختلاف.

الأرض

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. الذاريات.

القرآن الكريم: كتاب دين وعلم وأخلاق ولكنك تجد الآيات العلمية فيه متفرقة هنا وهناك على الرغم من وفرتها وبما تضمنته من بينات معجزات ولم يجد العرب فى مبدأ نزول القرآن حافزا للبحث فيها كما لم تهيئهم بيئتهم ومحصولهم العلمى أن يدققوا وراء تلك الآيات فلما تقدم العلم تفتحت أذهاننا إلى ناحية من الجلال لم تدركها عقولهم ولم تسم إليها أبصارهم فوجدنا أن القرآن معجز من جميع نواحيه فى كلماته وحرفياته وليس هذا بغريب، فالذى أنزل الكتاب هو الذى خلق العالم وصنع كل شىء وأتقنه ومن أعلم من الخالق بما خلق. انظر إلى الكتاب الكريم يعرض لنا بعض الآيات فى كوكبنا الحقير كى نتدبرها.

وقد سبق أن رأينا كيف تكلم القرآن الكريم عن تكوين الأرض وعن شكلها وحركتها بما لم يجد العلم الحديث عنه مزيدا ولكنه يأبى إلا أن يزيدنا بالأرض علما، فالأرض لم تهيأ للعمران واستقبال الإنسان إلا بعد ستة عصور ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1] ولقد زادنا القرآن تخصيصا بقوله فى سورة فصلت: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾.

وفى هذا يتفق القرآن الكريم مع التوراة ويتفق معهما فى ذلك علم الجيولوجيا الحديث.

وليس المقصود باليوم هنا يوما من أربعة وعشرين ساعة إذ إن اليوم فى اللغة العربية قد يأتى بمعنى مدة من الزمن كقولك (يوم لك ويوم عليك) فليس المقصود هنا يوما بل المقصود زمن لك وزمن عليك وكقوله تعالى: ﴿يوم الدين﴾ فليس

---

(١) الحديد.

المقصود بيوم الدين يوما من أربعة ساعة وحينما نتكلم عن اليوم القطبى نعنى سنة نهارها ستة أشهر وليلها ستة أشهر مثلها، وقد فسر تبارك وتعالى اليوم بقوله فى سورة الحج: **﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾** وكقوله تعالى فى سورة المعارج: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾**، فالمقصود باليوم حقبة طويلة من الزمن وليس المقصود نهارا يتبعه الليل.

ويرينا القرآن الكريم كذلك أن الأرض كان يغطى وجهها الماء بقوله فى سورة هود: **﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾** وفى هذا يتفق القرآن الكريم مع أول كتاب مقدس نزل مفصلا وتناول هذه المسألة ألا وهو التوراة إذ تقول: «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء..»[1] وهما يتفقان فى ذلك مع الجيولوجيا الحديثة التى تقول أنه قد أحاط بالأرض فى حالتها الأولى أبخرة وغازات تحولت فيما بعد إلى ماء ثم ملأ ذلك الماء المنخفضات فتكونت منه البحار والمحيطات.

وإنك لتدهش لدقة القرآن فى ترتيبه الزمنى لحدوث التطورات المختلفة على الأرض بقوله تبارك وتعالى فى سورة النازعات: **﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾** تدهش إذا علمت أن الأنهار أخذت تتكون فى العصر الأركى «الحقب الابتدائى» وأنها هى وعوامل التعرية الأخرى «الحرارة والبرودة والرياح والأمطار» قد بدأت تكون الصخور الراسبة وأن ظهور النباتات الغير مزهرة والسرخسيات كان بكثرة وافرة فى العصر الذى يليه «الباليوزوى» حقب الحياة القديمة وأن ظهور أهم سلاسل الجبال كان فى عصر الحياة الحديثة. إذن فمن أوحى إلى محمد بهذا الترتيب؟ أهم الكهان أم هم الرهبان الذين كانوا يناهضون العلم ويضطهدون ذويه لا بل هو الرحمن الخالق البارئ المصور الذى أحسن كل شىء صنعا.

---

(١) عن قديم الإصحاح الأول، سفر التكوين.

انكماش الأرض

الأرض تبرد تدريجيًا فتنكمش وانكماشها هذا سبب من أسباب الالتواءات الأرضية وسبب من الأسباب التى تحدث البراكين فإذا انكمشت القشرة الأرضية ضغطت على جوف الأرض فخرج منه الحمم والصخور الملتهبة ولكن العجب ليس فى هذا وإنما هو فى ذكر هذه الحقيقة منذ ألف وثلثمائة عام أو يزيد فى ذلك الكتاب المجيد فى موضعين من مواضعه حينما كانت هذه الفكرة وأمثالها بعيدة كل البعد عن المحيط الفكرى للبشر. انظر إليه إذ يقول تبارك وتعالى فى سورة الرعد: **﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**[1].

وفى سورة الأنبياء: **﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾** [2]. صدق الله العظيم.

وقد يقول البعض أن المقصود بهذا هو طغيان ماء البحار على السواحل وتداخلها فيها مما يسبب تآكلها وتكوين الخلجان. وقد يكون هذا صحيحا إذا اقتصر الأمر على عملية الهدم هذه ولكنا نجد أن بجوار هذه العملية عملية إنشاء وبناء تعوضها ألا وهى تكوين الأنهار لأرض جديدة فى البحار عن طريق الدالات أو زيادة الأرض على جوانب المصبات وهذا مما يرجح الفرض الأول.

---

(١) الرعد: ٤٠.

(٢) الأنبياء: ٤١.

الغثاء الأحوى

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ (1).

الغثاء هو اليابس، والأحوى من الحوة وهى فى لسان العرب سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد، وقد كثر فى كلام العرب حتى سموا كل أسود أحوى.

إذن فتفسير **﴿فجعله غثاء أحوى﴾** هو جعله بعد خضرته يابسا، وهل هناك نبات إذا جف صار يابسا أسود؟ لا توجد - فيما نعلم - نباتات هكذا.

إذن فكيف أخرج الله تبارك وتعالى المرعى ثم جعله يابسا أسود؟ كيف ومتى؟ ألا ينطبق هذا كل الانطباق على الفحم الحجرى الذى تكون معظمه فى حقب الحياة القديمة حينما ظهرت النباتات غير المزهرة والسرخسيات بكثرة عظيمة ثم تراكمت فوقها فى بعض الجهات رواسب أخرى فتحولت إلى فحم حجرى مع طول الزمن وارتفاع الضغط والحرارة.

نعم هذا هو الغثاء الأحوى الذى تكلم عنه القرآن الكريم وعلله فأصاب وأوجز، قال وأصاب فى وقت كانت فيه مثل هذه الحقائق غريبة على عقول البشر. قال هذا فسبق العلم بقرون عدة. أفليس هذا إعجازا؟ بلى والله إنه نعم الإعجاز.

---

(1) الأعلى: ١ - ٥.

نهاية المجموعة الشمسية

تضمن القرآن الكريم آيات بينات عن الساعة وأشراطها والقيامة وصورتها وسأعرض لبعض تلك الآيات الكريمة التى أفاضت فى ذلك مقتصرا على ما تعرض منها للمجموعة الشمسية التى تحدث العلم عن نهايتها لندرك إلى أى مدى جاء ذلك العلم يؤمن بالقرآن ويصدق به. وأول آية سنبحثها قوله تبارك وتعالى فى سورة التكوير: ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ وينحصر معنى هذه الآية فى وجهين: -

١ - إما أن الشمس ستضمحل ويقل حجمها من قولنا كور المتاع جمعه وشده.

٢ - وإما أن تغييرا عنيفا أو انفجارا شديدا سيحدث لها من قولنا ضرب الرجل فكوره أى صرعه.

وقد بين لنا جل شأنه ما سيصحب هذا التغيير من مظاهر أهمها:

١ - خروج نار من السماء تغشى الأرض. ويستقى ذلك من قوله تبارك وتعالى فى سورة الدخان:

﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

وفى رأيى أن الدخان هنا بمعنى النار وليس هذا الاستعمال غريبا، ففى القرآن أيضا:

﴿**ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**﴾.

إذ معنى قوله تعالى هنا وهى دخان أى وهى سديم وما السديم إلا ذرات ملتهبة فى الفضاء تشبه الدخان فى شكلها، ويعزز هذا الرأى حديث أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب**».

٢ - إحماء البحار أو ملؤها نارا كما تدل عليه الآية السادسة من سورة التكوير التى تقول: ﴿**وإذا البحار سجرت**﴾.

٣ ـ تلاشى القمر وهو ما بينه القرآن الكريم، إذ يقول فى سورة القيامة **﴿وجمع الشمس والقمر﴾**، إذ إن النار التى ستغشى الأرض ربما حولت القمر إلى سحابة غازية فيتلاشى.

٤ ـ تشقق السماء وتناثر الكواكب فى الفضاء. يدل على ذلك قوله تبارك وتعالى فى سورة الانفطار: **﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾**.

هذا ما قاله القرآن الكريم فلننظر إلى فروض العلم الحديث التى تنحصر فى فرضين:

أولهما: احتمال انفجار الشمس وخروج ألسنة من اللهب منها تصل إلى الأرض وفى هذا ستكون الكارثة على الإنسان فلا تكاد تصل أول موجة منها حتى يهلك كل شىء حى فى الهواء والأرض والبحار ويحترق كل سطح الكرة الأرضية بسرعة هائلة فما ندرى ماذا دهى الأرض فدكها دكة واحدة.

وثانى هذه الفروض: أن تتناقص كمية إشعاع الشمس فيبرد سطح الأرض برودة تستحيل معها الحياة عليها حتى ولو بقيت الشمس بعد ذلك مضيئة ملايين السنين ويكفى لهذا أن ينقص إشعاع الشمس بمقدار لا يتجاوز واحدا فى المائة حتى يقضى على جميع مظاهر الحياة على الأرض.

ويرجح القرآن الكريم الفرض الأول (وهو انفجار الشمس وخروج ألسنة من اللهب منها، إذ إن جميع الآيات التى تناولت هذا الموضوع تدل على أن هذا التغيير سيحدث نتيجة لحركة عنيفة كما أن قوله تبارك وتعالى: **﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير﴾** يبين أن الساعة ستأتى فجأة وبلا مقدمات وهذا ما يوضحه قول رسول الله ﷺ[(١)] : **«ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته[(٢)] فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط[(٣)] حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**.

أما تناثر الكواكب وهو الذى جاء به القرآن ولم يتناوله العلم الحديث فهو نتيجة طبيعية لهذا التغيير. ذلك أن الشمس تجذب الكواكب إليها والكواكب بدورها تحاول أن تبتعد عنها فهناك إذن قوتان. قوة جاذبة فى الشمس وقوة طاردة

(١) عن أبى هريرة.
(٢) الناقة الحلوب القريبة العهد بالولادة.
(٣) يطين ويصلح.

فى الكواكب فإذا انفجرت الشمس اضمحلت وضعفت جاذبيتها فتزداد قوة الكواكب الطاردة تبعا لذلك فتبتعد عن مراكزها الحالية متناثرة فى الفضاء.

هذا ما قاله القرآن العظيم وقد جاء العلم مصدقا به بعد ما يقرب من أربعة عشر قرنا فهل كان لدى محمد فى ذلك الوقت مراصد وعدسات وهل كان لديه أو لدى من سبقوه أو عاصروه علم بالتحليل الطيفى؟

كلا لم يكن عنده أو عند العالم آلات أو (تلسكوبات) ولكن كان عنده ما هو أدق من هذا وأكثر تبيانا وهى هذه الآيات المحكمات من لدن خالق هذه الكواكب والأفلاك فهو أدرى بها تباركت ذاته وتعالت كلماته.

القرآن والتاريخ

الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. معظمها قصص دينى وهو يختلف عن القصص السياسى أو التاريخ السياسى فى أنه يتناول فقط تاريخ الحركات الدينية وإن تناول الحالة السياسية والشخصية والاجتماعية فإنما يتناولها من ناحية علاقتها بالناحية الدينية فحسب.

وهذه نفس الحال فى التاريخ السياسى القديم فهو يتناول الحركات السياسية والاجتماعية والحربية وإن تناول الحال الدينية فإنما يتناولها من ناحية السياسة فحسب ولذلك فإنك ترى التاريخ السياسى لا يشير إلى ظهور بعض الأنبياء ولا يعرفنا عنهم شيئا مما دعا بعض الناس إلى التشكك فيهم واعتبارهم أشخاصا وهميين (فلم يذكر لنا مؤرخو مصر شيئا عن إبراهيم ويوسف وموسى كما لم يذكر لنا مؤرخو الرومان شيئا عن عيسى وبدأ حركته).

والحقيقة أنه لولا الكتب الدينية وما خلفه أولئك الأنبياء من تعاليم ومبادئ أخذت تنتقل من جيل إلى جيل لما علمنا شيئا عنهم وإلى هذا يرجع السبب فى أننا نجهل زمن ظهور هؤلاء الرجال العظام. فمن منا يمكن أن يحدد متى ظهر موسى أو يوسف أو إبراهيم.

وبما أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية فلذلك نراه قد جمع كل ما فى الكتب السالفة مسهبا حينا وموجزاً حينا آخر ولكنه بحكم نزوله بعد الإنجيل قص علينا أخبار الحقبة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام بالتفصيل، فقص علينا قصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود وغزو أبرهة لمكة كما أخبرنا عن عيسى عليه السلام بأشياء لم يتناولها الإنجيل، مثال ذلك تكليم عيسى الناس فى المهد ونزول مائدة عليه من السماء وتكوينه من الطين على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وقد اعترف الإنجيل نفسه أنه لم يلم بكل معجزات عيسى بقول يوحنا فى إنجيله: (وأشياء كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة)[1].

---

(١) الإصحاح الحادى والعشرين بإنجيل يوحنا - العهد الجديد.

وإنزال القرآن الكريم مجزءا على حسب ما تتطلبه الحوادث كان داعيا إلى أنه أخبرنا بأشياء أدى إليها حب استطلاع أصدقائه وأعدائه المريدين تحديه بأسئلتهم التى ظنوها تحمل الإعجاز فى ثناياها، فقص علينا قصة ذى القرنين ويختلف المفسرون فى ذى القرنين فبعضهم يقول أنه الإسكندر المقدونى ويقول البعض الآخر أنه شخص آخر مختلف عنه كل الاختلاف وظهر أن هؤلاء هم أصحاب الرأى الصحيح.

وقد أزال القرآن اللبس المحيط بكثير من المسائل وحددها تحديدا واضحا جليا لا غموض فيه.

وللقرآن ميزة تاريخية أخرى هى دقته المتناهية بحيث إنك إذا أردت أن تعبر عن حادثة تاريخية تعبيرا موجزا وافيا بالغرض واضحا بينا يؤدى كل ما ترمى إليه بحيث يغنى قارئه وسامعه عن أى تفسير وإيضاح لم تجد ما يعادل تعبير القرآن إذ تجد فيه فوق ماترنو اليه وتصبو.

انظر إليه وهو يصف ديانة المصريين القدماء على لسان يوسف الصديق فى سورة يوسف.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

هل هناك خير من هذا وأكثر إلماما بالحقيقة؟ وهل هناك ما هو أدق - وأكثر توضيحا لديانة قدماء المصريين؟ ألم يكونوا يعبدون آلهة متعددة وكان لكل بلدة إلهها الخاص **﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾** وكان يحدث بين حين وآخر أن تنتشر عبادة إله من هذه الآلهة عندما يعظم شأن البلدة التى يعبد فيها مثال ذلك رع إله عين الشمس وآمون إله طيبة وآتون إله الملك أخناتون وكان (أزوريس) هو إله الموت و(تحوت) إله العلم والحكمة و (أنوبيس) إله التحنيط، وأليست هذه الأسماء أسماء لكائنات خيالية اخترعتها عقولهم!

ولقد بين القرآن الكريم حقيقة أخرى متعلقة بديانة قدماء المصريين بإيجاز

وجلاء، وهذه الحقيقة هى تبيانه أن فرعون كان يعتبر فى نظر المصريين إلههم الرئيسى الذى بيده كل شىء بقوله تعالى فى سورة النازعات: ﴿ **فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ وهذا عين ما قاله التاريخ بعد أن أزيح الستار عنه وكشفت غوامضه فى القرنين الأخيرين إذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه أكبر آلهتهم وكانوا يسمونه (بحوريس الحى) وقد راعوا فى بناء أهرامهم وقبور ملوكهم أن تكون فوق الروابى لتتمكن الفراعنة من الإشراف على البلاد فى مماتهم كما كانوا فى حياتهم.

ولم يقتصر القرآن على موضع واحد فى الإشارة إلى هذا الاعتقاد بل أشار إليه فى سورة الشعراء: فى خطاب فرعون إلى موسى: ﴿**قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين**﴾، وفى سورة القصص فى خطاب فرعون إلى شعبه ﴿**وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى**﴾.

ولكن إعجاز القرآن الكريم لا ينحصر فى دقته وإعجازه البلاغى فحسب ولكنه يتعداه إلى إعجاز علمى يظهر فى تأريخه المستقبل وحوادثه تأريخا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والأمثلة على ذلك عديدة آثرنا وضعها فى باب مستقل وسنكتفى بضرب مثلين من تحديات القرآن التاريخية، أحدهما متعلق بخلاف دينى، والآخر بمسألة حربية انتصر فى كليهما انتصارا لا مرية فيه.

التحديات

١ ـ الإسلام والنصرانية

المباهلة أو وفد نجران

ظهر فى الأفق دين سماوى جديد فعز على اليهودية كما عز على النصرانية أن يظهر فى السماء ضوء آخر يجتذب إليه عيون الناس وأفئدتهم وخشى كل منهما على مكانته أن تضمحل وأن يحتل هذا النجم اللامع مكان الصدارة منهما.

أما اليهود فإنهم لجأوا إلى الكيد لهذا الوليد جاء أن يكتموا أنفاسه وهو فى مهده فأخذوا يؤلبون العرب عليه ويحرضونهم على محاربته وقد نجحوا فى هذا فتحالفت قبائل العرب واليهود وحاصروا المدينة فى غزوة الخندق ومما زاد فى محنة المسلمين أن حلفاء النبى وهم يهود بنى قريظة نكثوا عهدهم وتخلوا عن النبى وانضموا الى أعدائه فضاقت الدنيا بالمسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا فقد كانت بلاد الحجاز كلها تطبق عليهم فى المدينة ولكنهم خرجوا من هذه المحنة آخر الأمر سالمين وتفرق الحلفاء بعد أن صمدت لهم المدينة فاستعصت عليهم وبذلك ارتد سهم اليهود إلى نحرهم وأخذ هذا النور الذى أرادوا أن يطفئوه يزداد ويعلو حتى عم الجزيرة وأضاء العراق وفارس والهند ووصل إلى الصين وأشرق على الشام ومصر وشمال أفريقيا ووسطها وشرقها وأطراف آسيا وقلبها وجنوبها وعبرت منارته بحر الروم والقلزم حتى جنوبى روسيا.

أما النصرانية فسلكت حياله مسلكا آخر. حاجته وأرادت أن تلزمه الحجة فهذا وفد من نصارى نجران جاء إلى النبى يريد أن يتحدى الإسلام والقرآن. عرض عليه النبى الإسلام فقال (إنّا نحن المسلمون حقا) فما كان من النبى إلا أن أفهمهم أن ثلاثة أشياء تمنعهم عن الإسلام: أكل الخنزير وعبادة الصليب وقولهم إن لله ولداً.

فما كان منهم إلا سألوه سؤالا ظنوه معجزا وهو (من أبو عيسى) وهنا تلا رسول الله ﷺ: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا**

جاءَكَ منَ الْعلْم فَقُلْ تعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنسَاءَنَا وَنسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّه عَلَى الْكَاذبينَ (٦١) إنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا منْ إلَه إلاَّ اللَّهُ وَإنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ﴾[١].

وقد حسم الله بهذه الآيات هذا الخلاف فأفهمهم أن عيسى ما هو إلا عبد من عبيد الله خلقه من غير أب وأن هناك سابقة لهذا أشد وقعا على النفس من ميلاد عيسى وهى خلق الله آدم من غير أب ولا أم وكأن القرآن الكريم يرد عليهم بسؤال من نوع سؤالهم إلا وهو من أبو آدم؟

ثم أفهمهم أن كثرة المجادلة غير مجدية وأنهم إذا كانوا لا يزالون يصرون على قولهم فأحسن طريقة لحسم هذا النزاع هو أن يلتجئ الفريقان إلى الله فيدعو أنه أن ينزل لعنته على الفريق الكاذب منهما.

هناك ظهرت قوة الحق وبلبلة الباطل فعندما دعاهم النبى إلى المباهلة أرجأوه حتى يتشاوروا فلما انعقد جميعهم قال لهم رئيسهم: (والله لقد عرفتم نبوته ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم والله ما بأهل قوم نبيا إلا هلكوا فإن أبيتم إلا دينكم فوادعوا الرجل).

ولكن محمد الواثق من نفسه ومن حقه المؤمن بربه غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضى الله عنه وراءهما وهو يقول لهم: إذا دعوت فأمنوا.

عندئذ قال الأسقف: (يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا).

وهكذا قوة الحق إذا تجلت ارتعد الباطل لها وتقهقر فلم يكن منهم إلا أن أذعنوا لرسول الله ﷺ وتفادوا المباهلة وارتضوا الجزية كما تعاهدوا ألا يأكلوا الربا أو يتعاملوا به ثم رجعوا إلى قومهم.

أما النبى فرجع وهو يقول: **«والذى نفس محمد بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر»**.

---

(١) سورة آل عمران.: ٥٩ ـ ٦٢.

حكمة بالغة وحجة دامغة. تحداهم النبى أن يقفوا فى صعيد واحد فيدعوا الله أن ينزل لعنته على الكاذبين فما كان منهم إلا أن ولوا مدبرين ولو كان الحق بيدهم لما وجلوا ولا خافوا ولأبانوه للملأ ولكنهم علموا صدق قول الرسول فخشوا العاقبة واستنكفوا أن يهجروا دينهم إلى الدين الجديد الذى علموا أنه الحق بعد أن كانوا يظنون أنهم به سيظفرون.

ب ــ الروم والفرس

كانت دولتا الفرس والروم تقتسمان السيطرة على معظم العالم المأهول وقتئذ وكانتا ككل قوتين عظميتين متجاورتين كثيرتي الاحتكاك بعضهما ببعض، وفى أثناء ظهور الإسلام بينما كان محمد ﷺ يجاهد أهل مكة بحجته وبيانه وهم يتمادون فى إيذائه كانت الظروف تمهد له الطريق خارج بلاده فقد أخذت هاتان القوتان العظيمتان تتطاحنان.

هنا تظهر قوة الإيمان وقصر حجة الإنسان مهما كان لديه من منطق وقوة استدلال، أما المستقبل الذى لا يعلمه إلا خالق الأكوان ولا يمكن أن يتنبأ به كائن من كان وإذا قال الخالق كلمته وخالفته ولو إلى حين ظواهر الأحوال السائقة إلى ما ينتظر من نتائج وآمال كذبت فى النهاية وصدقت كلمة الله إذ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ذو الجلال والإكرام.

حارب الفرس والروم فتداعت الإمبراطورية الرومانية وسقطت ممتلكاتها كما تسقط الأوراق الذابلة فى الخريف.

وصل الفرس إلى شواطئ البسوفور وهددوا القسطنطينية من الشرق وليت الأمر اقتصر على هذا فقد هاجمتها قبائل الهمج من الغرب فوصلوا إلى أبوابها وأصبحت الإمبراطورية الرومانية لا تتعدى أسوار القسطنطينية وأفلست الخزائن وأصبحت خاوية وفكر الإمبراطور فى الهرب.

انظر إلى بتلر وهو يقول فى كتابه فتح مصر: «كان أول شىء فعله هرقل أن يبعث إلى كسرى يتوسل إليه أن يصالحه فما كان نصيبه من ذلك إلا الدفع والرفض بازدراء وقد عزم هرقل على أن ينضو التاج ويعود إلى موطنه فى أفريقيا» ويقول عن قبائل الآفار «إنها كانت تجوس خلال الديار فى عامى ٦٢٢، ٦٢٣م تخرب فيها وكادوا يوقعون بهرقل نفسه ثم يأخذون العاصمة بمكيدة دنيئة دبروها»

دولة مهدمة ضعيفة فقيرة مفلسة وقلوب محطمة يملؤها اليأس تطلب الصلح وترجوه ولكنه يؤبى عليها وتؤذى فى كرامتها ويطلب منها تغيير دينها.

أى قوة بشرية مهما كانت كان فى وسعها أن تقول: إن هذه الدولة المحطمة ستنتصر بغير جيش وبغير مال والهزيمة تأتيها من كل مكان؟ لو قيل هذا من بشر لظن الناس أن به خبلا.

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ١ ـ ٥).

ولكن هذا ما قاله عالم الغيب حينما قهرت الروم وظهرت فارس عليها. ولكن قريشا كذبته ولم يكن لأحد أن يلومهم؛ لأن هذا كان فوق متناول الطاقة البشرية. كذبوا وفرحوا. إذ هم عبدة النار وهم فى الدين إخوان والنصارى والمسلمين كلاهما أهل كتاب. كذبوا وكان كل ظاهر من الأشياء ينبئ بأنهم على حق ولكنهم لم يعلموا أن كلمة الله على الرغم مما يرون لا مبدل لها.

تحمس الفريقان حتى وصلت بهم الحالة إلى الرهان، فهذا أبو بكر يجزم بأن الروم لا بد منتصرون وهذا أبى بن خلف يكذبه ويتمادى فى تكذيبه ولم يكن مع أبى بكر من دليل غير الإيمان بكلمة **الله**. إذ كانت كل ظواهر الأحوال تقف ضده وتحاربه.

تراهنا على مائة قلوص بأجل يمتد بضع سنين من ثلاث إلى تسع. معجزة لم تدر بخلد البشر. فلا بد أن تتحقق كلمة الله وتتحقق بصورة رائعة يدهش لها الجميع. تتحقق فجأة وبلا مقدمات. إن ذلك الميت قد دبت فيه الروح وسرت الدماء فى شرايينه وذلك المفلس قد تلمس المال فلم يجده إلا فى ذهب أوانى الكنائس فضحى بها وهى غريزة على النفس ثم سار بجيشه الذى حطمته الأيام فاسترجع أملاكه ودخل فارس وفتحها واسترجع الصليب الأعظم. شىء عجيب بلا مراء. ولكن متى فعل هذا؟ أفى الموعد الذى حدده القرآن؟ نعم وألف نعم.

نعم فلقد ربح أبو بكر المائة قلوص وتصدق بها، ففى بحر التسع سنين هزمت الفرس هزيمة منكرة وتكللت أعمال الحرب بفتح «دستجرد» وهى مدينة على ثمانين ميلا من المدائن وذلك فى فبراير سنة ٦٢٨م وفر كسرى هاربا ثم قبض عليه ولقى

على يد (شيرويه) خلفه عذابا شديدا ثم قتله بعد أيام من ذلك وفى هذا يقول بتلر: «وانتهى القتال إلى صلح بين دولتى الروم والفرس، وهكذا انتهت تلك الحرب الصليبية الكبرى بنصر عجيب قل مثله فى التاريخ بما يثيره فى النفوس».

وماذا حدث بعد ذلك؟ حدث بعد ذلك تتمة كلمة الله إذ لا بد أن تتم إلى النهاية فقد أخبرهم الله تبارك وتعالى أن الروم ستنتصر بعد هذه الهزيمة الشنعاء ثم أخبرهم أن المؤمنين سيفرحون بنصر الله. نعم فلم يقبض النبى ﷺ حتى خضعت أطراف الشام (تبوك وأيلة ودومة الجندل) للمسلمين وحينما قبض إلى الرفيق الأعلى انهالت جيوش المسلمين على قلتها وضآلة عددها وضعف أسلحتها على الروم وفارس تحدوها كلمة الله مؤمنة بها مؤمنة بنصر الله الذى وعدها إياه متأكدة من سلاحها الماضى الذى هو أمضى الأسلحة وهو وعد الله، وعده أن ينصر المؤمنين وقد كان: ولكن كان متى؟ كان عقب انتصار الروم مباشرة ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾.

بهذا الوعد واجهت هذه الأمة الجوعانة العريانة القليلة العدد والعدة هاتين الأمتين القويتين بشعوبهما وجيوشهما الجرارة وسلاحهما وعتادهما فهزمتهما واحتلت أراضيهما ـ بهذا الوعد واجه ستة وثلاثون ألفا من العرب فى اليرموك ما يزيد على مائتى ألف من الروم فهزموهم هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة.

بهذا الوعد ورث العرب الذين لم يتجاوز عددهم ثلثمائة ألف إمبراطوريتين عظيمتين (فارس والروم) يزيد تعدادهما على المائة مليون من الأنفس. بهذا الوعد كان يرسل أبو بكر وعمر الحفنة من الرجال ليواجهوا الجيوش العديدة متأكدين من نصر الله. بهذا الوعد تكونت الإمبراطورية الإسلامية التى امتدت من المحيط الأطلنطى إلى حدود الصين فى عشرات من السنين ﴿**وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾.

هيمنة القرآن التاريخية
والعلمية

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾المائدة.

القرآن كمؤرخ له طابعه الخاص فى التاريخ، فهو يتناول الحوادث تناولا يدل على استقلاله العلمى وله فى سردها طريقته الخاصة ومما يدل على هذا الاستقلال العلمى أنه ذكر عن عيسى عليه السلام أشياء لم يتناولها الإنجيل نفسه كما بينا من قبل ولم يقتصر الأمر على الإنجيل، بل إن هيمنته التاريخية تناولت التوراة فى أعظم شخصياتها موسى ويوسف وإبراهيم عليهم السلام عدا كثير غيرهم من الأنبياء الكرام.

فالتوراة لم تتناول حياة إبراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لإقناعهم بوجود إله واحد ومحاولته نشر دعوته وتحطيم أصنامهم فقذفهم به فى النار ونجاته منها ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما كما لم تتكلم عن إعادة بناء إسماعيل وإبراهيم للبيت الحرام، بينما تناول القرآن الكريم هذه الموضوعات بما ليس فيه زيادة لمستزيد وبأسلوبه الشيق الجذاب الذى تحار أمام عظمته الألباب.

أما عن يوسف فإن التوراة لم تتعرض لكيفية ظهور براءته مما نسبته إليه امرأة العزيز من اتهامه بمحاولة هتك عرضها، بينما شرحها لنا القرآن الكريم مبينا أن صبيا من أهلها (ويغلب أن يكون ابن أختها أو ابن خالها أو ابن عمها) أنطقه الله ببراءة يوسف **﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**.

كما أن التوراة لم تتكلم عن حادث النسوة اللاتى بهرهن يوسف بجماله فقطعن أيديهن كما لم تبين لنا الموقف العظيم الذى وقفه حينما أبى الخروج من السجن إلا بعد أن تعلن براءته على الملأ وأن تسأل النسوة ليقررن الحقيقة.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ

أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

خرج يوسف ومثل بين يدى فرعون ليكون عنده المتصرف الأمين على خزائنه وأرضه وأقوات رعيته. خرج ليأمر فيطاع.

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

طريقة ظريفة لحفظ القمح من السوس والتلف. لقد حار الناس كيف حفظ يوسف القمح سبع سنين إذ لم تفسر التوراة ذلك والسوس يتسرب إلى المخزون منه بعد أربعة أشهر على الأكثر فكيف تسنى ليوسف إنقاذ مصر وإنقاذ قوتها! هنا تظهر عظمة القرآن إذ أبان لنا تلك الطريقة العجيبة على الرغم من بساطتها.

أتى أخوة يوسف إلى مصر المرة الثانية فاحتجز يوسف شقيقه بنيامين ولكن التوراة أغفلت ذكر رجوعهم إلى أبيهم وإخباره بفقدان أخيهم كما لم تذكر ما ترتب على علم أبيهم بفقد ولديه العزيزين من حزن شديد كان من جرائه ذهاب بصره ﴿**وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾ إذ تقول التوراة فى سفر التكوين الإصحاح الرابع والأربعين على لسان أخوة يوسف فى رجاء موجه إليه (هنا نحن عبيد لسيدى نحن والذى وجد الكاس فى يده جميعا. فقال حاشا لى أن أفعل هذا. الرجل الذى وجد الكاس فى يده هو يكون لى عبدا. أما أنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم) ولم يردف ذلك بقوله هل هم ذهبوا أم لا وإنما أردفه برجاء لكبيرهم يهوذا عارضا نفسه بدل أخيه لشيخوخة والدة وخوفه من هلاكه لشدة حزنه ثم يتلو ذلك الإصحاح الخامس والأربعين حيث يبدأ بتعريف يوسف نفسه لإخوته.

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن طريقة استرجاع يعقوب لبصره كما حدثنا عن سبب ذهابه فأفهمنا أنه شفى بمعجزة تتلخص فى وضع قميص يوسف على وجهه فارتد بصيرا بيد أن التوراة لم تذكر شيئا عن هذا الأمر.

هذا عن يوسف، أما عن موسى فإن القرآن الكريم انفرد دون التوراة بالمعلومات الآتية:

١ ـ الشرط الذى اشترطه شعيب على موسى لتزويجه إحدى ابنتيه ﴿ عَلَىٰ أَن

تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾[1] ،وقضاء موسى أبعد الأجلين.

٢ ـ إيمان السحرة الذين تحدوا موسى وسجودهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم.

٣ ـ امرأة فرعون وإيمانهم خفية وأمر فرعون لهامان أن يبنى له صرحا ليطلع على إلـه موسى.

٤ ـ انتشال جثة فرعون بعد غرقه **﴿اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**[2].

٥ ـ مؤمن آل فرعون الذى أخذ يعظ الشعب ليهديهم سبل الرشاد.

هذه بعض الأمثلة على هيمنة القرآن التاريخية وإنها لهيمنة تظهر بوضوح وجلاء كلما أمعن الإنسان البحث فى ثناياه. وليست هذه الهيمنة قاصرة على التاريخ فقط، بل إن جلاله وهيبته تشمل جميع النواحى فهو يبسط سيطرته الجبارة فى كل ما يتناوله من تشريعات دينية وأخلاقية ونواميس تربوية واجتماعية وحقائق علمية وفلكية ومعلومات طبية وأخبار غيبية.

---

(١) سورة القصص. (٢) سورة يونس.

تاريخ المستقبل

١ ـ فتح خيبر ومكة

من بين ما بشر به القرآن المسلمين قبل وقوعه فتح خيبر ومكة، فقد رأى رسول الله صلوات الله عليه فيما يرى النائم أنه وأصحابه دخلوا المسجد الحرام آمنين. فلا بد إذن من الذهاب الى مكة فاستنفر الأصحاب فاستعدوا للرحيل واستنفر الأعراب قبائل أسلم ومذينة وغفار. فتخلفوا وتعللوا بأموالهم وأهليهم ولكن الحقيقة أنهم كانوا يخشون بأس قريش ويظنون أنه إذا احتكم الطرفان إلى السيف فلا بد من خذلان النبى أمام سادة العرب. أمام قوم عرفوا بالشجاعة والحروب يغزون فى عقر دارهم.

ولكن تخلفهم هذا لم يوهن عزم النبى فقد سار ومعه من المهاجرين والأنصار أربعة وخمسون وثلثمائة وألف ساروا وهم يرجون أن يموتوا فى سبيل الله لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. فلم تكن تقعد بهم عن الجهاد قلة عددهم، ولا كان يثنيهم عن واجب الدعوة عليهم كثرة أعدائهم؛ ذلك أن قوتهم إنما كانت مستمدة من إيمانهم.

عسكر الرسول فى الحديبية وأرسل رسله إلى قريش يفهمونهم أنه إنما جاء حاجا لا غازيا: بعث خواش بن أمية الخزاعى فعقرت قريش جمله وأرادت قتله فمنعه الأحابيش، وبعث عثمان بن عفان فاحتجزوه وبلغ النبى أنه قتل فهاجت حمية المسلمين وبايعوا رسول الله على القتال إلى آخر ما فيهم من رمق، ولكن قريشاً بعثت رسلا تطلب من محمد أن يرجع من عامه على أن تخلى له مكة من القابل ثلاثة أيام.

رأى النبى ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوه لعدم رغبته فى إراقة الدماء فى بلد الله الحرام تبجيلا له وتكريما. كما أن رؤياه تنص على أنه سيدخل المسجد الحرام آمنا مطمئنا وهذا يتناقض مع استعمال القوة. كما أنها لم تحدد زمنا ما فدخولها فى ذلك العام أو فى العام الذى يليه سيان. فعقد معهم عهدا نص فيه على أن يرجع المسلمون عامهم هذا عن مكة حتى إذا كان عام قابل أخلت قريش مكة ثلاثة

أيام لهم. وعلى أن توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين. وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه. ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وقد أغضب المسلمين أحد شروط هذه الهدنة وهو الشرط الذى يقول بأن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه إذ اعتبر المسلمون هذا إجحافا بهم لا يرضاه دينهم وعز عليهم ذلك. فلما أدرك رسول الله أنه عز عليهم أفهمهم أنه عبد الله ورسوله فلن يخالف أمره ولن يضيعه الله.

وقد تبلبلت خواطر بعض المسلمين عندما علموا أنهم سيرجعون عن مكة دون بلوغ مأربهم وقد فاتهم أن وراء علمهم المحدود علما آخر لا حد له هو الذى يوجههم ويهديهم سبيل الرشاد وقد برهنت الحوادث على بعد نظر الرسول فلم تكن هذه المهادنة عهدا مهينا كما كانوا يظنون بل كانت فتحا مبينا، ففى طريق المسلمين من مكة إلى المدينة نزلت سورة الفتح تتضمن تفسيرا لهذا الموقف الذى أثار عواطف المسلمين وتلخص الحوادث التى سيواجهها الإسلام حتى فتح مكة وتوضح نوايا المتخلفين من الأعراب وتبشر المسلمين بأن رؤيا النبى ستحقق بحذافيرها.

أما تفسير موقف النبى فى الحديبية فقد تناولته هذه الآيات الكريمة: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**﴾ [(١)].

إذ بينت هذه الآيات أن صلح الحديبية إنما هو فتح مبين للإسلام، وقد بنت هذا على ثلاثة اعتبارات: -

(الأول) أنه خطورة لابد منها لإتمام نشر الدعوة الإسلامية من قوله تبارك وتعالى: ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾.

(الثانى) أنه سيتيح للنبى أن ينهج الطريق القويم الموصل إلى هذا الغرض من قوله جل شأنه: ﴿**ويهديك صراطا مستقيما**﴾.

---

(١) الفتح: ١ - ٣.

(والثالث) أن الأيام ستتوج هذا الصلح بنصر عظيم للمسلمين وما هذا النصر العظيم إلا فتح مكة من قوله تعالى: ﴿**وينصرك الله نصرا عزيزا**﴾.

كما بين لهم الله سببا من الأسباب التى كانت خافية عليهم والتى من أجلها ألهم النبى الرضاء بالسلم الذى عرضته قريش عليه وهو الخوف من أن يصيب المؤمنين المستترين بمكة إذا دارت رحى الحرب أذى من إخوانهم المسلمين بغير علم منهم فتصبح معرة فى جبينهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿**ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم**﴾.

أما أهم الآيات التى تشير إلى ما سيواجهه المسلمون من أحداث فهى:

(١) ﴿ **قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾[1].

(٢) ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[2].

ويشير القرآن فى هذه الآيات إلى حقيقتين: ـ

أولهما ـ أن المسلمين على وشك أن يفتحوا فتحا آخر وأن هذا الفتح الذى سيصيبهم منه مغانم كثيرة قد قدر الله أن يتم قبل أن يدخلوا المسجد الحرام.

ثانيهما ـ أن رؤيا النبى ستحقق وأنهم لا بد داخلون المسجد الحرام مطمئنين.

أما المتخلفون من الأعراب فقد أظهر الله أن تعللهم بأموالهم وأولادهم لم يكن حقا وأن تخلفهم إنما كان عن خوف لظنهم بأن المسلمين لا بد لها الكون إذا هاجموا قريشا فى ديارهم.

فلنرجع إذن إلى حوادث التاريخ لنرى كيف حققت الأيام ما ذهب إليه القرآن.

فأول ثمرة أثمرها هذا الصلح دخول خزاعة فى عهد محمد وعقده وبذلك

(١) الفتح: ١٨، ١٩.   (٢) الفتح: ٢٧.

قويت شوكة المسلمين، أما أعظم ثمرات هذا الصلح فتنحصر فى أن المسلمين قد أمنوا جانب قريش إذا عن لهم أن يشتبكوا فى حرب أخرى وبذلك تمكنوا من التفرغ لعدوهم الجبار الذى حاول القضاء عليهم سابقاً فى غزوة الأحزاب والذى كان يتربص بهم الدوائر وهم اليهود الذين كانوا شوكة فى جنب المسلمين والذين كانوا عرضة لأن ينقضوا عليهم فى أى وقت يرون فيه الفرصة مواتية لهم والذين كان المسلمون يخشون أن يتحالفوا مع الروم ضدهم.

واتخاذ قريش هذا الموقف موقف المهادنة من الإسلام جنب المسلمين الحرب فى جبهتين وفرق القوى التى كانت مستعدة للتحالف ضدهم والتى كان يؤلف بينها غرض واحد هو القضاء على الإسلام.

فبعد أن رجع النبى ﷺ إلى المدينة بخمسة عشر يوما على قول وبشهر على قول آخر أمر أصحابه بأن يتجهزوا لغزو اليهود فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء. فسار المسلمون لهذه الحرب الجديدة وهم مطمئنون إلى أن قريشا لن تهاجمهم وقد تبينت لهم الميزة الكبرى لصلح الحديبية عندما وقفوا أمام حصون خيبر التى استبسلت فى الدفاع لمدة طويلة ولم يستطع المسلمون التغلب عليها إلا بعد حرب عنيفة قاسية فلو لم يكن المسلمون مطمئنين إلى ظهرهم لوزعوا قوتهم ولما أمكنهم أن يتغلبوا على هذه الحصون، فصلح الحديبية إذن كان من أقوى الأسباب لنجاح حملة المسلمين ضد هذه الحصون العتيدة. وهذا هو الفتح القريب الذى بشر القرآن المسلمين به فى أثناء قفولهم إلى المدينة، وكان من نتائجه أن حصل المسلمون على غنائم وأسلحة كثيرة أعانتهم فى حروبهم التى خاضوا غمارها فيما بعد.

وكان القضاء على قوة اليهود الحربية سببا من الأسباب التى سهلت على النبى ﷺ فتح مكة فيما بعد دون أن يراق فى سبيل ذلك دم كثير إذ سار جيش المسلمين إليها وهو آمن أن لن يطعنه أحد من الخلف، كما أن مكة حينما نظرت إلى جيش النبى العظيم ووجدت نفسها وحيدة فى الميدان لا حليف لها ولا نصير فضلت المسالمة. وسقطت فى يد النبى دون حرب تقريباً. ولا يتجلى فضل هذا العهد فى ناحية الحرب فحسب. بل يتجلى كذلك فى ناحيته السلمية. وإذا كان رسول الله قد نجح فى خطته الحربية ففرق أعداءه، وأضعفهم بهذا التفريق، فإنه نجح كذلك فى ملء الفترة التى كانت بين إبرام العهد وبين فتح مكة بدعايته لدينه، وبإرسال

الرسل إلى الأقطار والبلاد المجاورة يدعون إلى الإسلام.

ويجدر بنا ونحن بصدد البحث فى نتائج صلح الحديبية ألا ننسى أن الشرط الخاص بإعطاء الحرية لقبائل العرب فى اختيار العهد الذى يرضونه أعطت الفرصة لأن يجهر بمحالفة النبى من لم يكن يستطيع هذا الجهر قبلا. ويعتبر هذا أول اعتراف من قريش بحرية الأديان، أما الشرط الذى ظن فيه المسلمون إجحافاً بهم فقد برهنت الحوادث أنه لصالحهم وليس لصالح أعدائهم حين تعاهدوا أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه، فإنه لم تمض فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هى الخاسرة بهذا الشرط ذلك أن المسلمين الذين هربوا من مكة وذهبوا إلى النبى فلم يقبلهم تنفيذا للعهد ألفوا عصابات أخذت تقطع طريق القوافل على تجارة قريش فضجت قريش إذ لم يكن فى استطاعتها أن تردهم إليها ولا أن تشكوهم إلى محمد؛ لأنهم كانوا خارجين عن ولايته بحكم الهدنة. وعندئذ فقط علم المسلمون أنهم لم يكونوا هم الخاسرين.

وقد تجلت مزايا عهد الحديبية وما جره على المسلمين من قوة وخير حينما حل موعد الحج فى العام التالى، إذ نادى النبى أصحابه أن يتجهزوا للحج فخرج معه من شهد الحديبية إلا من استشهد فى خيبر أو أدركته الوفاة خلال العام، وانضم إليهم جمع كبير ممن لم يشهد الحديبية يتبعهم النساء والأطفال وساقوا البدن أمامهم حاملين السلاح والرماح والدروع وعلى رأسهم مائة فارس، ولقد بهر قريش هذا المظهر وأدخل فى نفوسهم الروعة والرهبة إذ كيف أتى لهم بهذا الحشد العظيم ذلك الذى خرج من مكة تفاديا للقتل وخرج وراءه أصحاب قليلو العدد كانوا يقدرون بالعشرات. فأيقنوا أنه لابد على الحق وإلا لما نما وازداد. وقد كان هذا الاستعراض الرائع للمسلمين حرب أعصاب من الدرجة الأولى مهد لفتح مكة خير تمهيد.

لقد حج النبى وطاف بالبيت آمنا مطمئنا وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾.

دخل المسلمون البيت ثم انقضت الثلاثة أيام وكان بودهم ألا تنقضى فبانقضائها كان حتما عليهم أن يغادروا البيت الحرام. رجع المسلمون وكان بودهم ألا يرجعوا حتى يفتحوا هذا البلد العزيز. رجعوا وهم شديدو الحنين إليها ولكن

ماذا يفعلون؟ أينقضون العهد؟ كلا فما هم بناقضين إذ ألزمهم الله كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها. إذن فليصبروا إذ لا مبدل لكلمات الله. إذ سيتم نعمته عليهم وينصرهم نصرا عزيزا:

وها هى الأيام تهيئ لهم الطريق بفضل ما ألهمهم الله فى صلح الحديبية فلم تمض غير فترة وجيزه حتى نقضت قريش عهدها، إذ أعانت بنى كنانة الداخلة فى عهدها على خزاعة الداخلة فى عهد محمد وأمدتهم بالسلاح والمال فما كان من خزاعة إلا أن استنصرت بالنبى، وهكذا أتاح الله للمسلمين الفرصة التى كانوا يتوقون إليها وساروا إلى مكة لا معتدين ولا ناقضين للعهد إذ لم يكن من مبادئ الإسلام البدء بالاعتداء.

سار محمد على رأس جيش لجب مكون لا من ألف ونيف كما كان قبلا بل مكون من عشرة آلاف مقاتل أحاطوا بمكة. لقد ذهلت قريش فما شهدوا قبل اليوم مثل هذا الجمع فتضعضعت روحهم المعنوية، أما عند الحديبية فكان عدد المسلمين ضئيلا وكان ذلك مغريا لقريش على الحرب إذ رفض محمد السلم كما كان داعيا لها للتعسف فى شروطها، أما اليوم فرأوا أنهم لا قبل لهم بهذه القوة الساحقة التى لم تشهدها جزيرة العرب من قبل فطأطأت قريش رأسها فما أن نادى رسول الله صلوات الله عليه (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن) حتى نفذه أهل مكة أجمعين إلا ثلة فى جنوبها لم تلبث أن انهزمت أمام قائد المسلمين فى الجنوب.

وبذلك كان من نتائج عهد الحديبية حقن دماء العرب وهكذا كان هذا العهد فتحا مبينا؛ لأنه كان سببا فى كسر شوكة اليهود فى الجزيرة العربية وسببا فى فتح المسلمين لمكة هذا الفتح الذى أقبل بعده على النبى ﷺ وفود القبائل من جميع أنحاء الجزيرة تطلب الإسلام حينما رأوا أن صناديد العرب وقادتها قد دانوا له.

ولقد كان حرص النبى ﷺ على عدم إراقة الدم العربى ما استطاع إلى ذلك سبيلا سياسة حكيمة أدت إلى الاحتفاظ بالقوة العربية فأمكنها أن تواجه فيما بعد قوتى الروم والفرس فنشرت لواء الإسلام خفاقا خارج بلاد العرب، كما أن نتائج هذا العهد ترينا بوضوح أنه قد ينال الإنسان بالرأى أضعاف ما ينال بالسيف وأن الجنوح إلى السلم فى بعض المواضع أجدى من الالتجاء إلى الحرب.

٢ ـ اضطهاد اليهود

الآيات الواردة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢].

المعنى:

تعنى الآية الأولى: أن النكبات ستنهال على اليهود باستمرار حتى نهاية العالم وأن الله سبحانه وتعالى سيبعث عليهم من يذيقهم العذاب بين الحين والحين.

وتعنى الآية الثانية: أن الله قد فرق شملهم وأنه قد ابتلاهم بالخير والشر لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

أما الآية الثالثة. فمعناها: أن الذلة وغضب الله قد لازما اليهود وسيلازمانهم أينما حلوا على مدى الدهور، وأن هذا الغضب من الله وما هم فيم من ذلة. ومسكنة وما ينتابهم من نكبات مرجعه إلى كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وإغراقهم فى المعاصى.

وقد نزلت هذه الآيات فى أوائل القرن السابع، ومن عجب أن تاريخ القرون التى تلتْ نزولها قد ترسم خطاها وسار على منطوقها. ولكى تعلم مبلغ إعجازها سأعرض قصة اليهود كاملة قبل نزولها وبعده وإليك هذه القصة المثيرة التى تشهد بهذا الإعجاز الغيبى وكم فى القرآن من أشباه هذه الآيات. ولا غرو فلا ينبئك مثل الذى خلق وهو اللطيف الخبير.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٧، ١٦٨.

(٢) سورة البقرة : ١٦١.

وسأقسم هذه القصة إلى فترتين: الأولى من نشأة بنى إسرائيل حتى ظهور الاسلام، والفترة الثانية من ظهور الإسلام حتى الآن.

الفترة الأولى

تشمل هذه الفترة اضطهاد فرعون مصر لهم وقيام العداوة بينهم فى فلسطين وأسر البابليين لهم والنكبات التى توالت عليهم من السوريين وما لاقوه على يد الرومان من عنت وقتل وتمثيل وتشريد.

١ ـ اضطهاد فرعون لهم:

يبدأ تاريخهم فى مصر بقدوم يوسف وعائلته بما فيهم يعقوب (إسرائيل) إليها ثم سكناهم فى أرض جاشان (الشرقية الآن) حيث تكاثروا حتى بلغوا فيما يقال مئات الألوف وارتضوا العيش بجانب المصريين وطابت لهم الإقامة وتأثرت عقائدهم الدينية بعقائد المصريين الوثنية، وبينما هم كذلك فى رغد من العيش إذ شاء سوء طالعهم أن يتنبأ الكهان أن نهاية فرعون ستكون على يد فتى يولد فى بنى إسرائيل وكان فرعون هذا على الأرجح هو (منبتاح بن رمسيس الثانى) فما كان منه إلا أن أمر بذبح أطفالهم الذكور وترك أطفالهم الإناث.

ففكر الإسرائيليون فى الخلاص من هذا الاستعباد ولم يجدوا خيرا من أن يتركوا مصر إلى الأرض الموعودة (فلسطين)، وقد تم إخراجهم من مصر على يد موسى عليه السلام وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**.

٢ ـ فى فلسطين:

بعد موت موسى دخل بنو إسرائيل فلسطين بعد أن ظلوا أربعين سنة فى صحراء سيناء، وقد بلغوا قمة مجدهم فى عهد (سليمان بن داود) الذى بنى معبدهم فى (أورشليم) والذى بلغت فى عهده مملكة بنى إسرائيل أقصى قوتها واتساعها ولكن بعد موته انقسمت مملكة الإسرائيلين إلى قسمين: القسم الشمالى ويسمى (مملكة إسرائيل) والقسم الجنوبى ويسمى (مملكة يهوذا) ولسوء الحظ ساءت العلاقات بين هاتين المملكتين الشقيقتين ووقعتا فى مصادمات دموية مستمرة وصار

كل فريق يستعين بالأجانب على الآخر وبذلك أذاق الله بعضهم بأس بعض.

٣ ـ الأسر الآشورى والبابلى:

وكان بجوار فلسطين إمبراطورية قوية آخذة فى النمو وهى إمبراطورية (آشور) التى تطلعت فى عهد (سالماذار) إلى الاستيلاء على مملكة إسرائيل فاستولى على عاصمة مملكة إسرائيل (السامرة) وقادهم أسرى الى بلاده فلم يبق إلا مملكة يهوذا (المملكة الجنوبية) وهذه لقيت حتفها بدورها حينما تولى (يواقيم) عرشها إذ حاربه بختنصر (ملك كلديا) وأخذه أسيرا إلى بابل ولكن يواقيم عندما عاد إلى فلسطين ثانية ثار على بختنصر فما كان من بختنصر إلا أن رجع ودخل أورشليم وخربها وقاد أكثر أهلها أسرى سنة ٧٨٥ق.م، وفى الأسر ازداد حنينهم إلى فلسطين وبكاها شعراؤهم.

٤ ـ اضطهاد السوريين لهم:

ولكن شاء القدر أن يرجعهم إلى فلسطين ثانيا ليذوقوا من العذاب أشد مما ذاقوا أولا فحينما استولى كورش (إمبراطور الفرس) على بابل سمح لهم بالعودة إلى بلادهم فعاد منهم سنة ٦٣٥ق.م٤٢ ألف رجل بعائلاتهم وأسسوا مملكة يهوذا تحت الحماية الفارسية ومنذ ذلك الوقت أطلق عليهم اسم اليهود ولم يكونوا يعرفون به من قبل وقد أعاد لهم دارا بناء بيت المقدس. وبعد فتح الإسكندر للشام وفلسطين وقعوا تحت حكم الإغريق وفى سنة ٣٠٠ق.م حكمهم ملوك سوريا لأول مرة وفى سنة ٣٢٠ق.م دخلت مملكة يهوذا لثانى مرة تحت حكم السوريين وقد اضطهدهم ملوك سوريا وأثقلوا كواهلهم بالضرائب فإن (سوليسيد) كان يعتبر ممتلكاتهم غنيمة، وحاول (سلكس الرابع) أن ينهب معبدهم، كما حاول (أنتيخيوس أبيفان) أن يمحو ديانتهم إذ أمر بنصب تمثال (جوبيتر) إلـه اليونانيين الأكبر فى وسط معبدهم ومنعهم من الختان وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهورا كبيرا منهم.

ولكنهم بعد ذلك تغلبوا على السوريين وطردوهم من بلادهم وأعادوا الشريعة المرسوبة فازدهرت مملكتهم وأعادوا ذكر أيام داود.

٥ ـ الاضطهاد الرومانى:

وحوالى سنه ٦٣ق.م وقعت فلسطين تحت حكم الرومان وعند استيلاء بومبى على أورشليم ذبح الأحبار فى المحراب وهلك ما يقرب من اثنى عشر ألفا من اليهود وسام الرومان اليهود سوء العذاب وقبضوا عليهم بيد من حديد وقمعوا جميع المحاولات التى بذلت لإعادة مجد بنى إسرائيل. وقد بلغ اضطهاد الرومان لهم حدا أدى إلى الثورة سنة ٧٠ق.م فما كان من (تيتوس) إلا أن أمر بإحراق معبدهم وذبح معظم أهل أورشليم وبيع من بقى منهم ولم يبق منهم غير الذين هربوا إلى الجبال.

٦ ـ اليهودى التائه ﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾:

ولم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ولكن البقية الباقية من اليهود عادت فثارت فما كان من الإمبراطور (هارديان) إلا أن هدم المدينة من أساسها سنة ١٣٥م وبنى على أنقاضها مدينة جديدة حرم دخولها عليهم وجعل جزاء من يتجاسر على ولوجها القتل وسماها باسم جديد هو (إيليا كابيتولينا).

كما أمر بذبح مئات الآلاف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ومزقوا شر ممزق فهاجرت طائفة إلى شواطئ الفرات وطائفة إلى بلاد العرب وطائفة إلى الأفغان وطائفة أخرى إلى الهند والصين وأقامت طائفة فى أوربا حيث كانوا موضع الإهانة والسخريه والعذاب وخصوصا فى عهد الإمبراطورين جستنيان وهيراقل حيث تحملوا أشد أنواع الاضطهاد.

الفترة الثانية

بعد ظهور الإسلام

ظهر الإسلام فظهر معه العدل والتسامح فى دنيا غارقة فى الظلم والتعصب وانتشر فلازماه حيثما حل وصارت بلاد المسلمين هى البلاد الوحيدة التى يتمتع فيها اليهود بالحرية والهدوء وكامل الحقوق.

عقد نبى الإسلام عند حلوله بالمدينة مع يهودها معاهدة ساوى فيها بينهم وبين المسلمين فى الحقوق وقد ظلت هذه المعاهدة قائمة إلى أن نقضها اليهود من جانبهم

وحاولوا العرب للقضاء على الإسلام فقامت بينهم وبين المسلمين حروب وانتهى أمرهم إلى جلائهم عن بلاد العرب.

ولما فتح المسلمون فارس والشام وفلسطين ومصر وبلاد الأفغان ووصلوا إلى الهند لم يميزوا فى المعاملة بين اليهود وغيرهم وتركوا لهم الحرية الدينيةوالاجتماعية والسياسية التامه فلم يتدخلوا فى عباداتهم بل احترموا بيعهم وحافظوا عليها وأرسلوا إليها الهدايا وبجلوا أحبارهم كما احترموا كنائس المسيحيين ورجال دينهم.

ولم يجد العرب غضاضة فى استخدام اليهود والنصارى فى معظم وظائفهم بل إن من الخلفاء من اتخذ منهم وزراء، فقد استعمل أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان منصور وسرجون الرومى من نصارى سوريا كاتبين وصاحبى أمره على مال الدولة كما كان أكبر وزراء العزيز الفاطمى يعقوب بن كلس وكان يهوديا وأسلم وعيسى بن نطورس وهو مسيحى، وهذا يدل على المبلغ الذى بلغه التسامح الإسلامى نحو غيره من الأديان، بينما نرى ما يناقض ذلك فيما جرى بين المسيحيين واليهود فقد سام الأولون الآخرين سوء العذاب: أذاقوهم ألوانا من الاضطهادات تشمئز لذكرها النفوس وظلوا يتفننون فى تعذيبهم ويصبون عليهم من ضروب الويلات ما يشفق الإنسان أن يعامل بمثله العجماوات.

وترجع العداوة المتأصلة بين اليهود والمسيحيين إلى أن المسيحيين يحملون اليهود تبعة دم المسيح.

ويرجع السبب الثانى فى اضطهادهم إلى اشتغالهم بالربا الفاحش وثرائهم من ذلك، ومن التجارة مما جعلهم أرباب المال فى أوربا، وقد كان من نتيجة ذلك أن حقد الناس عليهم وصاروا من حين لآخر ينتهزون الفرص لاغتصاب أموالهم تفريجا لضائقتهم وإليك قصتهم كاملة فى أوربا وهى قصة ستثير عطفك كما ستثير إعجابك بتلك الآيات الرائعة التى دارت حولها حوادث الزمان فلم تزدنا بها إلا تصديقا ولم تزدنا بها إلا إيمانا وستشهد الأجيال القادمة بعظمتها وإعجازها كما نشهد نحن سواء بسواء.

استغاثتهم بالمسلمين فى أسبانيا

لما فتح المسلمون شمال أفريقيا كانت أسبانيا فى ذلك الوقت تئن من حكم القوط الغربيين وكان اليهود فيها مضطهدين من جانب الأشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعا عبيدا فما أن سمعوا بتسامح المسلمين وعدلهم حتى هرب كثير منهم إلى أفريقيا وطلبوا إلى موسى بن نصير أن يخلصهم من ظلم لزريق فهب موسى ابن نصير لنصرتهم وفتح الأندلس، ولما فتح المسلمون الأندلس تمتع اليهود هناك بالحرية بعد الاستعباد وبالاطمئنان التام بعد الخوف الدائم.

نقمة أوربا عليهم

أما فى بقية بلاد أوربا فقد أقفلت دونهم أبواب الرحمة وتحملوا من المآسى ما لا يمكن أن يوصف، وكانوا فى أيام المصائب القومية يذبحون ويقتلون كأنهم نعاج إذ اعتبروا سبب المصائب النازلة والحروب وسبب كل فتنة تصيب رجال المسيح.

ففى أيام الحروب الصليبية سقط ألوف منهم صرعى بأيدى الجموع الهائجة. وعند انتشار الموت الأسود فى أوربا سنة ١٣٤٧ صب الناس جام غضبهم على اليهود وقاموا بسلسلة من الهجمات ضدهم، وفى مينتز والمدن الألمانية الأخرى أخذ الشعب الهائج يلقى بهم فى النار بالمئات والألوف اعتقادا منهم أن الوباء من عملهم وكان من جراء ذلك أن هاجر اليهود من غرب أوربا إلى بولندا.

وكان إذا ارتكب أحدهم هفوة انتقم من سائر اليهود أشد انتقام وكان المسيحيون يبتكرون الأسباب للانتقام منهم ومصادرة أموالهم ناهيك بما كانوا يتقولون به عليهم من تسميم ينابيع المياه وقتل الأولاد الصغار وتخريق الخبز المقدس بالسكاكين.

كانوا يعتبرون طرد اليهود وقتلهم من أعمال البر والتقوى وكان اليهود يشترون حمايتهم بالمال وكان الحكام كلما وقعوا فى أزمات مالية لجأوا إلى اليهود فأمدوهم بالمساعدات الإجبارية نظر ما يلقون من حمايتهم وتأمينهم. وكانوا فى بعض الممالك يعتبرون كالسلع تباع وتشترى، ففى ألمانيا كانوا ملكا للإمبراطور أو للأمراء وقد بيعوا أكثر من مرة.

وكانوا معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة وكانت قرارات المجالس وأوامر الحكام تكرر دائما عدم أهليتهم للتمتع بالحقوق المدنية كما كانوا محرومين من

مزاولة أى عمل حكومى أو الالتحاق بأية هيئة أو الانتماء إلى أية جماعة أو الاندماج بالناس.

أما إقامتهم فكانت فى أقسام منعزلة من المدن. أقسام قذرة ترتع فيها الأوبئة وكان يتحتم عليهم وضع علامات مهينة على ملابسهم لتميزهم عن غيرهم.

ففى روما مثلا كانوا يسكنون حيا قذرا من المدينة يقال له (الجيتو) وكانوا يقفلون أبوابه عليهم فى الليل ويشدون الأبواب بالسلاسل من الحديد وكان على اليهودى إذا أراد الانتقال إلى بعض جهات (مملكة روما) ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ تصريحا بذلك من السلطة الكهنوتية.

وكان محرما عليهم أن يتخذوا هناك بيعا أو أديرة أو أن يتحدوا مع المسيحيين أو يصاحبوهم وقد نص فى الأمر الذى صدر سنة ١٨٦٥ على معاقبة مخالفى ذلك بالحبس مع غرامة خمس ريالات.

وليت الأمر اقتصر على هذا فقد كانوا يمنعون من دخول بعض المدن كما حدد عددهم فى المدن الأخرى ومنعوا من الزواج إلا بقيود تحدد من نسلهم وعددهم وكان محرما عليهم اتخاذ خدم من المسيحيين.

ولما فتح نابليون ألمانيا بدأوا يتنسمون الحرية ولكنهم فقدوا ما اكتسبوه عندما تراجع الفرنسيون وفرضت عليهم القيود القديمة، فالضريبة التى كانت تجبى من اليهودى كلما عبر حدود مدينة أو مقاطعة مهما صغرت حتى ولو دخل أو خرج عشرين مرة فى اليوم لم تلغ فى بروسيا إلا سنة ١٧٩٠، وفى الولايات الألمانية الأخرى إلا سنة ١٨٠٣.

طردهم من ممالك أوربا

فى سنة ١٣٩١ - ١٤٣١ عمت شبه جزيرة ليبيريا موجة من الذبح لليهود حيث وجد كثير منهم مأوى فى اعتناق المسيحية.

ولما استولى فرديناند وإيزابلا على الأندلس وطردا المسلمين منها طاردا اليهود كما تطارد الوحوش الكاسرة.

وفى ٣١ مارس سنة ١٤٩٢ صدر قرار بطردهم من أسبانيا وصقلية وسردينيا

اللتين كانتا مملوكتين فى ذلك الوقت لملك أراجون. فذهب بعضهم إلى هولندا والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا وقد قلدت البرتغال أسبانيا سنة ١٤٩٦ ثم طبق فى نافار سنة ١٤٩٨ ولم يسمح لهم بالعودة إلى أسبانيا إلا بعد سنة ١٨٨١.

أما فى إيطاليا فقد طردوا من نابلى سنة ١٥١٠ وتم إجلاؤهم التام عنها سنة ١٥٤٨ وطردوا من دوقية ميلان سنة ١٥٩٧ بعد الاحتلال الإسبانى.

أما فى فرنسا فقد تناولهم الطرد والتغريم عند ما استولت أسرةالكارولوفنجيين على العرش، وفى سنة ١٢٩٥ طردوا من جنوب فرنسا ولكن فى سنة ١٥٥٥ سمح لهم بالإقامة فى بوردو وباتون.

وتعتبر إنجلترا أول مملكة خلصت نفسها من اليهود كلية، ففى عهد إدوارد الأول طردوا من المملكة سنة ١٢٩٠م ولم يسمح لهم بدخولها إلا فى عهد الجمهورية حوالى منتصف القرن السابع عشر.

أما فى النمسا فقد طردوا من فينا وحولت بيعهم إلى كنائس ولم يعودوا إليها إلا فى عهد فردناند الأول ولما صدر قرار سنة ١٧٤٤ بنفيهم توسطوا فى إلغائه نظير دفعهم ثلاثة ملايين فلورن سنويا لمدة عشر سنين كما فرض عليهم أيضا دفع ضريبة قدرها أربعون ألف فلورن لتوريد ليمون لوليمة (عيد المظلات).

أما يهود المجر فقد حل بهم ما حل بإخوانهم فى النمسا من الطرد ثم العودة وفى أثناء ثورة سنة ١٨٤٨ قاسى اليهود الأهوال فى هنغاريا (المجر).

وقد منحوا الحرية المدنية والسياسية فى النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ ولكن ديانتهم لم يعترف بها إلا فى سنتى ١٨٩٥ و١٨٩٦.

أما فى روسيا فقد طردوا منها مرارا وظلوا مضطهدين إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكانوا ممنوعين من الانتقال ومحرومين من الحقوق العامة ولا يزال التاريخ يذكر المذابح العظيمة التى لحقت بهم فى (نجنى نوفوجراد) الواقعة على نهر الفلجا سنة ١٨٨٢، وفى (كشنف) فى ولاية بسارابيا وفى أماكن أخرى سنة ١٩٠٣.

غضب القرن العشرين

أ ــ الحرب العالمية الأولى

غيرت الحرب العالمية الأولى وجه المسألة اليهودية تغييرا تاما، ففى الإمبراطورية الروسية أحضرت معها الحرية السياسية ولكنها أحضرت معها كذلك آلاما لا تطاق وانتهت بغمرهم فى فيضان الفوضى الذى صحب الحرب الأهلية.

وعندما قبض البلاشفة على السلطة وقف اليهود بجانب المعتدلين وبذلك تحملوا كثيرا من الآلام وسجن كثير من زعمائهم وبما أنهم كانوا رأسماليين يعيشون على التجارة فقد قاسوا الأمرين من الثورة البلشفية التى حاربت الرأسمالية ومن القيود الاقتصادية التى أحضرتها الثورة معها ومما زاد فى شقائهم صعوبة إرسال المعونة لهم من الخارج.

أما فى رومانيا فقد كانوا معتبرين غرباء على الرغم من نشأتهم فيها وظلوا كذلك حتى نهاية الحرب ولما وضعت الحرب أوزارها أعطوا حريتهم تقريبا وأخذت الحكومة تتدخل لوضع حد للثورات ضدهم وتحسين أحوال مدنهم.

أما فى بولندا فقد زادت حالتهم سوءا أثناء الحرب عندما تابع الوطنيون البولنديون انتقاماتهم من اليهود وعاودوا مقاطعتهم لهم، تلك المقاطعة التى بدأت فى (وارسو) سنة ١٩١٢، وقد بلغ بؤس اليهود درجة استثارت عطف الحكومة الروسية فسمحت لهم بحرية السكن فى المدن الروسية ما عدا بعض الأماكن مثل مسكو وبتروجراد.

ب ــ بعد الهدنة

تبع الهدنة فى بولندا سلسلة من الأعمال العنيفة ضد اليهود، ففى السنة التى أعقبت الحرب قتل ٣٤٨ يهودى وجرح عدد يفوق هذا بكثير وكان اليهود يقاسون فى جميع أنحاء المملكة مقاطعة البولنديين لهم.

أما أكثر الأمكنة التى ذاقوا فيها الأمرين فهى جنوب روسيا، فقد أخذ الفلاحون الأكرانيون يذبحون اليهود بفظاعة لا مثيل لها، وفى سنة ١٩٢٢ أعادت الحكومة السوفيتية بعض النظام فوقفت المذابح ولكن حل محلها الجوع والوباء،

ففى سنة ١٩٢٣ كان هناك مائة ألف يهودى بلا مأوى فى الأكرين وبلغت نسبة موت اليهود (فى أوديسا) ٢٠٠ فى الألف، أما فى روسيا السوفيتية فلم يكن هناك مذابح ولكنهم حرموا من معيشتهم كتجار وأعلنت البلشفية الحرب عليهم أسوة بما فعلته مع الديانات الأخرى.

جـ ـ هتلر واليهود

ولكن القرن العشرين كان يخفى لهم من الدواهى ما هو أشد وأنكى كان يخفى لهم فى طياته عذابا أشد من كل ما دهمتهم به القرون الغابرة مجتمعة فما أن انتشرت النازية فى ألمانيا حتى أعلنت لهم العداوة الصريحة بل اعتبرتهم أعدى أعدائها ونظرت إليهم كوباء يجب استئصاله فقد أعلن زعيمها أن الغرض الأساسى من حركته هو تخليص أوربا من اليهود بقوله: (إن العالم سائر نحو ثورة عظيمة والسؤال الذى نحن بصدده هو هل ستؤدى هذه الثورة إلى تخليص الحضارة الآرية من شوائبها أو أنها ستكون خطوة أخرى يزداد بها نفوذ اليهودى الأبدى).

ولم تقتصر النازية على اضطهاد اليهود فى داخل ألمانيا ومصادرة أملاكهم وسومهم سوء العذاب بل تتبعتهم فى الأقاليم التى سيطرت عليها، تتبعتهم فى بولندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وفى اليونان ويوجوسلافيا وفى النرويج وروسيا وفى رومانيا وبلغاريا وصبت عليهم أعظم الكوارث التى شاهدها تاريخهم وإليك بعض البيانات لتقف على ما انهال على هذه الطائفة من نكبات.

(١) فى ٢٤ ـ ٩ ـ ١٩٤٤ أذاعت وكالة (بالكور) اليهودية نبأ من استكهلم جاء فيه. تقول الصحف السويدية: إن مشروع إبادة يهود أوربا لا يزال مستمر التنفيذ وإنه لم يبق من الـ ٣,٥ مليون يهودى فى بولندا سوى ٦٠٠ ألف ومن ٩٠٠ ألف يهودى فى ألمانيا سوى بضعة آلاف لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ولم يبق من ٢٠٠ ألف يهودى فى بلجيكا وهولندا سوى عشرة آلاف ومن ١٥٠ ألف يهودى فى النمسا سوى ٧ آلاف فقط ولم يبق على قيد الحياة أحد من الثمانين ألف يهودى فى يوجوسلافيا.

(٢) فى ٦ ـ ١١ ـ ١٩٤٤ نشر النبأ الآتى من لندن: تقول الأنباء الواردة من سلانيك أن الألمان أعملوا فيها النهب والتخريب خلال فترة الاحتلال. وبين مارس

يوليو سنة ١٩٤٣ نقل نحو ٥٠ ألف يهودى فى عربات الموت من سلانيك إلى جهة غير معروفة ودمرت المعابد اليهودية وهى قديمة يرجع عهدها إلى عدة قرون مضت.

(٣) فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٤ جاء نبأ من أثينا أن الحاخام الأكبر ورئيس الجالية اليهودية فى اليونان أصدرا بلاغا مشتركا عن اضطهاد النازيين لبنى جنسهما فقالا: إنه كان فى اليونان قبل الحرب ٩٠ ألف يهودى لم يبق منهم الآن غير ثمانية آلاف، أما الباقون وهم اثنان وثمانون ألفا فقد قتلوا رميا بالرصاص أو ماتوا بسبب الاضطهاد والتعذيب أو أرسلوا إلى معسكرات العمل الإلزامى فى بولينا وخسرت أثينا بنفسها ١٢٪ من اليهود الذين كانوا فيها ولكن هناك مدنا يونانية أخرى بلغت خسارة اليهود فيها ٨٠٪، أما كريت ورودس فلم يبق فيهما يهودى واحد.

(٤) وجاء فى خطبة تشرشل فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٥ و١٣ من ربيع الأول ١٣٦٤ ويقال: إن ثلاثة ملايين ونصف مليون يهودى بولونى قد ذبحوا كالأنعام ويرجح أن تاريخ الإنسان لم يلطخ فى يوم ما يعمل من أعمال القسوة تقشعر منه الأبدان كهذا العمل الفظيع.

(٥) كما أن الجمعيات الصهيونية فى أمريكا قدرت قتلى اليهود فى الحرب العالمية الثانية فى إعلاناتها فى الصحف الأمريكية أثناء انعقاد مؤتمر سان فرنسيسكو بخمسة ملايين قتيل.

هذه هى كارثة اليهود فى القرن العشرين كارثة تقشعر لهولها النفوس وليست هذه إلا مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ ومن أصدق من الله قيلا.

ولكن هل سيضع التاريخ حدا لاضطهادهم وإذلالهم؟ كلا فستستمر النكبات تتساقط عليهم حتى ينتهى العالم وهذا ما يعمل اليهود جاهدين على تجنبه.

والروح العدائية الموجودة فى قلوب الأوربيين عامة نحو اليهود هى التى دفعت اليهود إلى البحث لهم عن وطن قومى حتى ولو كان فى جهة صحراوية لا نبات فيها يكفيهم ولا معادن تستهويهم ولو كانوا مطمئنين إلى أن الروح العدائية

ستذهبها الأيام لما فضلوا أن يتركوا البلاد التى قضوا فيها مئات السنين على ما فيها من تقدم وحضارة ومجال واسع للثراء إلى جهة حرمتها الطبيعية معظم الخيرات. على أن الأمر لم يقتصر على أوربا بل تعداها إلى آسيا فهم مضطهدون فى أواسطها وإلى أمريكا فقد قضى قانون جونسون سنة ١٩٢٤ بعدم قبول مهاجرين من شرق أوربا لوقف سيل المهاجرين من اليهود الذين تدفقوا على أمريكا من شرق أوربا حيث بلغ اضطهادهم أقصاه.

وهم يعملون الآن على أن يتركوا أوربا منبع مصائبهم ويتجهوا نحو الشرق ونحو فلسطين خاصه ظنا منهم بأن هذا سينجيهم من الكوارث ولكنهم نسوا أنهم إذا اتجهوا نحو الشرق حتى بحماية إنجلترا لهم فهناك على مقربة منهم عدو الرأسمالية الأكبر يطل بقرنيه وويل لهم إن هو صادفهم فإنه لا محالة يزدردهم. كما أن عطف الشرق عليهم انقلب إلى ضغينة بدت فعلا بوادرها فخسروا بذلك الشرق كما خسروا الغرب من قبل. خسروا العطف الذى أظلهم آلاف السنين طمعا فى تحقيق وعد ممن أخرجوهم من ديارهم وشتتوهم واضطهدوهم. وحتى إذا فرض ونجحوا فى إقامة دولة يهودية لهم فى فلسطين بمساعدة أمريكا فهناك تكون الطامة الكبرى عليهم وخصوصا إذا قامت حرب ثالثة فستتخذهم أمريكا وإنجلترا جسرا يعبران عليه لملاقاة الروس وسيتدفق الروس نحوه لملاقاة أعدائهم ومنعهم من التوغل نحوهم وبذلك سيصب عليهم العذاب ألوانا ويكون موقعهم كموقع بلجيكا فى الحربين العالميتين الماضيتين بل أشد وأنكى. زد على ذلك أن العرب سينقضون عليهم انقضاض النمر على فريسته وقد أيقظ نكران الجميل والتعدى الذى لا مثيل له الأسد النائم فبدأ يستيقظ من رقاده ويدافع عن عرينه وسيرون حينما يجمع أهبته أنهم دخلوا فى عهد جديد من الاضطهاد الذى لن تنقطع سلسلته ﴿**وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا**﴾.

فليس العلاج إذن فى الانتقال من مكان لآخر ولكن العلاج الحقيقى هو عدم تعلقهم بعبادة المال - وهم لم يفعلوا ولن يفعلوا - وحينئذ فقط يمكنهم أن يقيموا فى أى مكان وبين أى شعب، أما اذا بقوا على ما هم عليه فلن يتغيروا فلن يتغير الزمان معهم حتى ولو اتخذوا مجاهل أفريقيا وطنا لهم.

٣ ـ العداوة بين المسيحيين

(١) قال الله تبارك وتعالى فى الآية السابعة والثلاثين من سورة مريم: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(٢) وقال تبارك وتعالى فى الآية الرابعة عشرة من سورة المائدة: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

التفسير

تبين الآية الأولى أن المسيحيين انقسموا أحزاباً. بعض هذه الأحزاب على حق وبعضها الآخر على ضلال.

وتبين الآية الثانية شيئين.

أولهما: أن فريقا من المسيحيين قد نسى كثيرا من تعاليم دينه مما كان سببا فى أن أصبح بعضهم لبعض عدواً.

وثانيهما: أن هذه العداوة لن تزول ولكنها ستستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

تطابق الحقائق

ولكى نرى مبلغ تطابق هاتين الآيتين وحقائق التاريخ يجب علينا أن نتبع سيرة المسيحية من بدء ظهورها حتى الآن، وسنجد حينئذ أن هذا التاريخ لم يجد يوما على منطوق هاتين الآيتين بل سار على نهجهما وترسم خطاهما فقد بدأت النصرانية فى فلسطين واحتكت أول الأمر باليهودية التى اضطهدت دعاتها فرحل بعضهم إلى الإسكندرية ورحل آخرون إلى روما. وقد أخذت المسيحية تنتشر فى الإمبراطورية الرومانية انتشارا سريعا وأخذ الأباطرة فى بادئ الأمر يضطهدون معتنقيها لأنها بدعوتها إلى عبادة الله كانت تحرم تقديس الأباطرة وعبادة تماثيلهم فى المعابد، كما أنها كانت تحرم الرق الذى كان عماد النظام الاقتصادى الرومانى وكذلك كانت تدعو إلى المساواة فى مجتمع ساده نظام الطبقات والإغراق فى

طلب الثروة والجاه ولكن الاضطهاد لم يزد المسيحية إلا انتشارا وقوة حتى أصبح عدد المسيحيين أكثر من الوثنيين فجعلها (قسطنطين) دين الدولة الرسمى ولما تولى (ثيودوسيوس) أخذ يحارب الوثنية فأغلق معابدها وجعل الناس يعمدون قسرا ومع ذلك فلم يلبث المسيحيون أن انقسموا فرقا اشتد الخلاف بينها اشتدادا صحبه اضطراب فى الأمن مما اضطر الأباطرة إلى التدخل بينها ومناصرة بعضها على البعض الآخر.

انقسموا إلى ثلاثة فرق: الملكانيين والنسطوريين واليعاقبة، والملكانيون هم أتباع أريوس الذى قال بأن المسيح مخلوق وليس مولوداً من الأب ولذا لا يساويه فى الجوهر.

أما النسطوريون وهم أتباع نسطور فقد قالوا: إن للمسيح طبيعتين إحداهما إلـَهية والثانية بشرية فهو بالأولى ابن الله وبالثانية ابن مريم وإلى ذلك يشير القرآن بقوله: ﴿**وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾، ويعنى القرآن الكريم بهذا أنهم قلدوا الديانات الوثنية القديمة فى هذه العقيدة مثل (الزرادشتين والبراهيمة والهندستانية والبوذية والرومانية والمصرية القديمة) وهى الديانات التى تحوى قصة المخلص المولود من عذراء، فقد كان المصريون يعتقدون أن (حوريس) ولد من الالـَه الأعظم (أوزوريس) والعذراء (إيزيس)، كما أن الرومان كانوا يعتقدون أن الإلـَه (جوبيتر) أنجب (بريسيوس) من العذراء (داناى) وأنجب (ديونيسيس) من العذراء (سيميل) وأنجب (هرقل) من العذراء (ألكمين). أما فى الهند فقد ولد كيرشنا فى كهف بينما أمه العذراء وخطيبها هاربين من غضب الملك.

وقد بلغ من تأثر المسيحية بالديانات المجوسية فى هذه العقيدة أن تاريخ ولادة المسيح غير مرارا إلى أن استقر فى يوم ٢٥ ديسمبر، وهو اليوم الذى كان المصريون يحتفلون فيه بمولد مخلصهم (حوريس) وهو نفس اليوم الذى كان الفرس يحتفلون فيه بميلاد (متزا)، كما كان هذا اليوم أحد الأعياد الدينية المماثلة فى الدولة الرومانية. وتخالف الكنيسة الشرقية الكنيسة الغربية فى ذلك فنجعل يوم ميلاد المسيح اليوم السابع من يناير.

أما الحزب الثالث وهو حزب اليعاقبة فيعتقدون أن المسيح هو الله نزل إلى الأرض، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى سورة المائدة بالآية التاسعة عشرة التى تقول: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

وليت الأمر اقتصر على هذا الانقسام بل إن الخلاف أخذ يزداد اتساعا وتعدداً كلما تقدمت الأيام، ففى القرن الحادى عشر انقسمت الكنيسة إلى فرعين: الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ثم أخذ الخلاف يتسع ويتشعب وأخذت الفرق تتوالد فتنشأ منها فرق جديدة وأحزاب جديدة رغما من الجهود العديدة التى بذلت لتوحيد الكنيسة، وفى الصفحة المقابلة جدول يبين مدى اختلاف المسيحيين وتعدد كنائسهم.

أسباب الانقسام

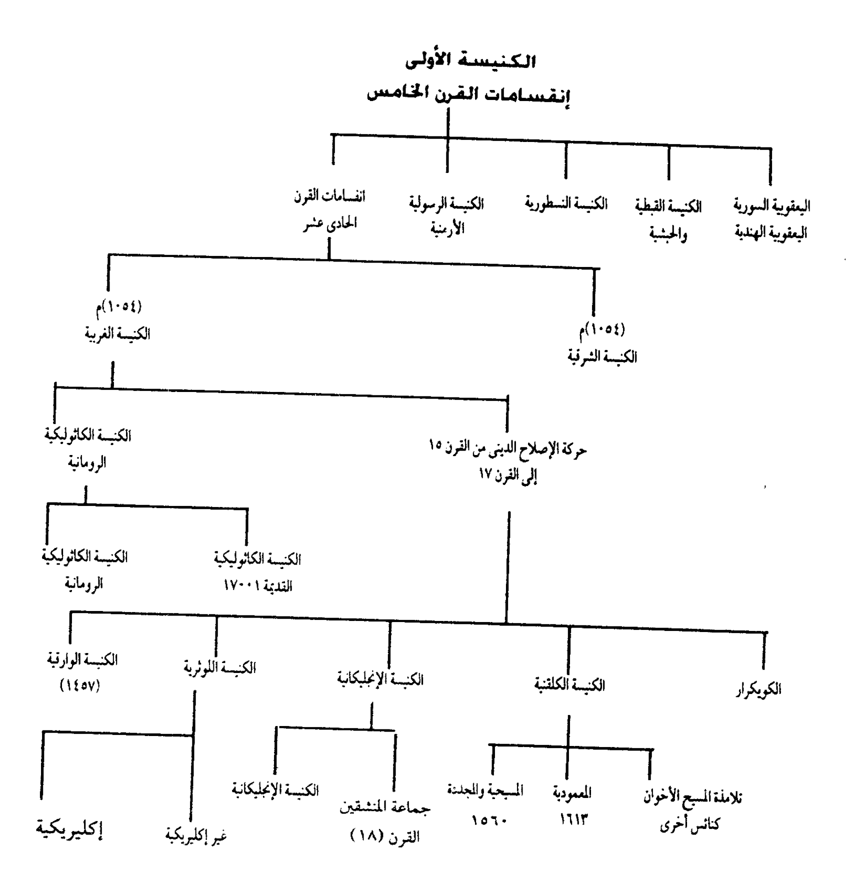
بنيت المسيحية على دعائم أربع:

(١) الإيمان بالله. (٢) الزهد. (٣) الحب والتراحم.

(٤) التسامح المطلق وعدم الاعتداء حتى حين يكون دفعا لشر.

هذه هى المبادئ الأربعة التى جاءت بها المسيحية، فقد جاءت بوحدانية خالصة وإيمان مطلق حتى كان المسيح عليه السلام إذا دعا لمريض بالشفاء قال بعد أن يبرأ (شفاك إيمانك) غير أن اختلاط المسيحية بالوثنية فأدخل فيها مبدأ تقديس الأشخاص والأشياء فوجد من بين المسيحيين من ينادى بألوهية المسيح وأباح الكاثوليك منهم عبادة الأولياء والصور، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة التوبة إذ يقول: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأما صكوك الغفران يمنحها البابا للعصاة فتغفر ذنوبهم إلا أثر من آثار هذا التقديس الذى ورثته المسيحية عن الوثنية. وبذلك يكون أول ركن من أركان المسيحية قد اختل من أساسه وهو إيمانهم بالله.

أما الزهد فى المسيحية فحدث عنه ولا حرج، فالمسيح أمام المتصوفين إذ كان يفترش الغبراء ويلتحف السماء ويتخذ القمر له مصباحا ومع ذلك كان يقول من أغنى منى؟ لم يكن له مسكن يأوى إليه ويظهر ذلك من رده على شخص قال له (يا سيد اتبعك أين تمضى) فقال له للثعالب أوجره ولطيور السماء أوكار، وأما ابن



الإنسان فليس له ابن يسند رأسه)، كما أنه ضرب المثل الأعلى فى الصوم فواصل الصوم أربعين يوما لم يذق فيها طعاما. وكان يشترط فيمن يتبعه أن يتجرد من الدنيا كتجرده فيترك كل شىء وراءه ويظهر ذلك من قوله لأحد من تقدم إليه: (إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى). وكان يقول لتلاميذه: (طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله. طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون) وكان يحذر أتباعه من الطمع يدل على ذلك قوله: (انظروا وتحفظوا من الطمع فإنه متى كان لأحد كثير فليس حياته من أمواله).

وأقوال عيسى عليه السلام فى الحث على الزهد كثيرة أهمها ما ورد فى صلاة المسيحيين الرئيسية (خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم) ويحذر الناس من الاكتناز بقوله:

بقوله: (لا تكتنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكتنزوا لكم كنوزا فى السماء) ويحذرهم من المال بقوله: (لا يقدر أحدكم أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم لما تلبسون).

ويبغضهم فى الغنى بقوله: (الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات وأقول لكم: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله).

هذه نظرة المسيحية إلى الحياة نظرة كلها تصوف واحتقار للمادة وبعد عن النعيم والترف وتحذير من المال، لأنه العدو الأكبر للإنسان. ولكن هذا الركن الثانى من أركان المسيحيه ما لبث أن انهار هو أيضا فقد انصرف دعاة المسيحية عن الشئون الدينية وانغمسوا فى أعمال السياسة والحروب وتناسوا قول المسيح عليه السلام: (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فنازعوا الملوك ممالكهم وسيادتهم وتحايلوا على اصطياد المال بكل طريق غير مشروع فزيادة على العشور التى كانت تتقاضاها الكنيسة وما كانت تحصل عليه من أملاكها الواسعة كان البابوات يجمعون المال بأساليب شتى كبيع الوظائف الدينية وحل عقود الزواج وبيع صكوك الغفران.

يشير القرآن إلى ذلك حيث يقول فى سورة التوبة: ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إنَّ كثيرا مَن الأحبار والرُهْبان ليأْكُلون أمْوَال النَّاس بالْباطل ويصُدُّون عن سبيل اللّه﴾.

وقد أخذ الجزء الأكبر من إيراد الكنيسة يتسرب إلى جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين ألقوا عبء القيام بأعمالهم الدينية على عاتق صغار القس نظير أجور بخسة وقد تأثرت الكنيسة بأسرها من مساوئ رعاتها حتى أن الأديرة التى نشأت فيما مضى لقمع الشهوات الدنيوية ونشر الهدى والصلاح قد تحولت إلى بؤرات للفساد والجهل وانتقل الفساد من رجال الدين الى المجتمع بصورة أعم.

أما المبدأ الثالث الذى امتازت به دعوة المسيحية وهو الحب والتراحم الذى يتمثل فى أعلى درجاته فى قول المسيح عليه السلام. (أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم) فقد تلاشى ذلك نتيجة لتعلقهم بالمادة وتكالبهم عليها وانعدام الصلة بينهم وبين الله.

وكذلك نسى المسيحيون ما دعا إليه عيسى عليه السلام من عدم الاعتداء والتسامح المطلق بقوله:(من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ومن سلبك قميصك فأعطه رداءك). نسوه لأنهم كلما انغمسوا فى المادة باعدت بينهم وبين الله فتعلقوا باللذات وغمرتهم الشهوات وكثرت بينهم الإحن وقادهم التكالب على الدنيا إلى الحروب والاعتداءات.

العداوة بينهم وازديادها على مر الأيام

اختلف المسيحيون أول ما اختلفوا على شخصية المسيح فنشأت بينهم أحزاب مختلفة لم يقتصر الخلاف بينها على خلاف فى النظريات والعقائد والطقوس بل تعداه إلى فتن دموية قامت بين تلك الطوائف،ومن أمثال تلك الفظائع التى تقشعر منها الأبدان ما ارتكبه الرومان مع أقباط مصر، فقد كان الرومان على المذهب الملكانى والمصريون معظمهم من اليعاقبة وعقب استرداد هرقل لمصر من الفرس حاول أن يوفق بين المذهبين فأبى القبط ذلك فلجأ الرومان إلى القوة وكان جزاء من يرفض تغيير عقيدته أن يجلد أو يضرب أو يلقى فى السجن حتى يلقى حتفه وكان القساوسه من القبط يقتلون أو يشردون، أما بطريقهم بنيامين فقد اختفى وطلبه الرومان فلم يعثروا له على أثر. وقد استمر هذا الإرهاب عشر سنين فتن فيها الناس عن عقيدتهم وأخذ الباقون يظهرون غير ما يبطنون تفاديا للعقاب ونستطيع أن نتصور ما كان فى قلوب الفريقين من حقد إذا نحن تأملنا قليلا هذه الحادثة التى يرويها التاريخ، فقد ذكر المؤرخون أن الروم حينما اتفقوا مع المسلمين على تسليم حصن بابليون أعطاهم المسلمون مهلة ثلاثة أيام لإخلاء الحصن وكان آخر أيامهم فى الحصن هو يوم عيد الفصح ولكن نكبتهم هذه وحرمة ذلك اليوم لم تمنعهم من ارواء غليلهم والتنكيل بأسرى الأقباط الذين سجنوهم من قبل فى الحصن فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، فأى فظاعة أشد من هذه الفظاعة، وأى قسوة أبلغ من هذه القسوة، وهل يليق ذلك باتباع دين بنى كله على الحب والتراحم والتسامح.

وليت الأمر اقتصر على مصر فقط فإن أباطرة الدولة الرومانية الشرقية اضطهدوا النسطوريين أيضا فى آسيا الصغرى والشام وفلسطين مما كان سببا فى التجاء علمائهم إلى العراق وفارس.

وتظهر البغضاء الكامنة فى قلوب المسيحيين بعضهم لبعض بوضوح فى أيام

الحروب الصليبية فعلى الرغم من وحدة غرضهم وهو القضاء على المسلمين وعلى الرغم من موجة التحمس الدينى التى سادت أوربا فى ذلك الوقت فإن سيرتها من أولها لنهايتها تدل على انعدام الإخلاص وأول مظهر يدل على ذلك هو تغرير إمبراطور القسطنطينية بحملة بطرس الناسك وعمله على التخلص منها لما كانت تتطلبه من تموينات وتستلزمه من نفقات وما كان سيلازم بقاء ثلثمائة ألف محارب من اختلال فى الأمن فى عاصمة ملكه فسهل لهم العبور إلى الضفة الأخرى من البسفور فكانوا لقمة سائغة ابتلعها السلجوقيون بدون مشقة إذ أبادوا الحملة عن آخرها. فبماذا نفسر عمل الإمبراطور الذى أخذ يستغيث بمسيحيى أوربا لإنقاذه من السلاجقة حتى إذا خفوا لنجدته عمل على التخلص منهم فكان من أسباب هلاكهم؟ ليس هناك من تفسير لهذا إلا الخيانة والغدر.

ومن أظهر الأمثلة على انعدام الإخلاص بين المسيحيين بعضهم على بعض قصة الحروب الصليبية الثالثة، فقد أدى الخلاف بين ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وبين فيليب أغسطس ملك فرنسا إلى عودة ملك فرنسا إلى بلاده وترك ريتشارد وحيداً ليحارب صلاح الدين وزاد الطين بلة أن فيليب أخذ يدس الدسائس لريتشارد بالاستعانة ببعض ملوك أوربا، كما أخذ أخو ريتشارد فى إنجلترا يعمل لاغتصاب العرش منه وكان من جراء ذلك أن حرم ريتشارد ثمن انتصاراته واضطر إلى العودة وإلى عقد صلح مع صلاح الدين.

وليت الأمر اقتصر على هذا فإن هذا الفارس الصليبى المغوار الذى أحرز انتصارات عظيمة فى الشرق لقى من المسيحيين جزاء سنمار. فبدلا من أن يحتلفوا به ويكرموه كبطل من أبطالهم قبضوا عليه وسجنوه. إذ فى أثناء طريقه إلى إنجلترا برا أسره ليوبولد دوق النمسا الذى سلمه إلى الإمبراطور هنرى السادس وقد أبى هذا أن يفك أسره إلا بعد أن دفع له دية كبيرة.

ولقد كانت حركة الإصلاح الدينى فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر أعنف حركة دينية شهدها التاريخ، فقد أدت الخلافات الدينية إلى حروب طويلة الأمد لم يشهد التاريخ لها مثيلا من قبل وإلى مشاحنات ومطاحنات واضطهادات كانت أشد ما عرف من نوعها فى تاريخ الأديان ولكى نرى مبلغ ما أثارته من عداوة يجب أن نستعرض أهم مظاهرها وهى:

(١) حرب الثلاثين عاما وقد استمرت من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ وكان تأثيرها فى

ألمانيا تأثيرا سيئا إذ ظلت ميدانا للحرب فريسة للنهب مدة ثلاثين سنة هلك فيها نصف سكانها تقريبا واندثرت فيها معالم الصناعة والتجارة والفنون.

(٢) اضطهاد هيجونوت فرنسا.

كان بروتستانت فرنسا يدعون الهوجونوت وكانوا أقلية ضئيلة فى وسط أغلبية كاثوليكية عظيمة ولذلك كان تاريخهم فيها حافلا بالاضطهادات والحروب والمذابح التى من أشهرها مذبحة(سان برثلميو) فى٢٤ أغسطس سنة١٥٧٢، إذ بينما كان (كولينى) زعيم الهيجونوت وأحد وزراء الملك شارل التاسع فى ذلك الوقت مارا أطلق عليه رجل الرصاص فأصابه إصابة غير قاتلة فعزم الملك على الانتقام فخاف الكاثوليك عاقبة التحقيق وانفضاح أمرهم فبيتوا يوم(عيد القديس ـ ثلميو) مذبحة هائلة ووضعوا علامات على بيوت الهيجونوت وما أصبح الصباح حتى جرت شوارع باريس بدماء الهيجونوت وانتقل الخبر من باريس الى الإقليم فقلدوهم وكانت النتيجه أن قتل من الهيجونوت ألفا نفس فى باريس وثمانية آلاف فى الأقاليم وحينما تولى ريشيليو مقاليد الأمور فى فرنسا عمل على إخضاع الهيجونوت وكانوا إذ ذاك يقيمون فى مدن محصنه فاستلزم إخضاعهم حروب طويلة الأمد.

(٣) محاكم التفتيش.

وهى محاكم لم ير التاريخ لها مثيلا كان شعارها القسوة التى لا رحمة فيها والاضطهاد الذى لا هوادة فيه لأعداء الكاثوليك وكانت تستمد سلطتها من البابا مباشرة ولا دخل للحكومات فى تصرفاتهم اللهم إلا القيام بتنفيذ أحكامها. كانت جلساتها سرية وكانت تتجسس بكل الطرق وتقبض على من تشاء وتعذب المقبوض عليهم بما تراه حتى تكرههم على الاعتراف بالإلحاد وحينئذ توقع عليهم عقوبة الإحراق أو السجن المؤبد ومصادرة الأملاك حتى التائبون منهم يسجنون طول حياتهم تطهيرا لهم من جريمة الإلحاد وكانت هذه المحاكم تراقب المطبوعات وتحرق ما لا يتفق منها على المذهب الكاثوليكى. ويذكر التاريخ هذه المحاكم كأعظم نقطة سوداء فى تاريخ المسيحية لما جرته على الشعوب البريئة من الويلات.

(٤) مجلس الدم.

لما اعتنق كثير من سكان الأراضى المنخفضة مذهب كلفن اشتد شارل فى معاملتهم وأقام محاكم التفتيش بها فأحرقت عددا كبيرا من البروتستانت، ولما

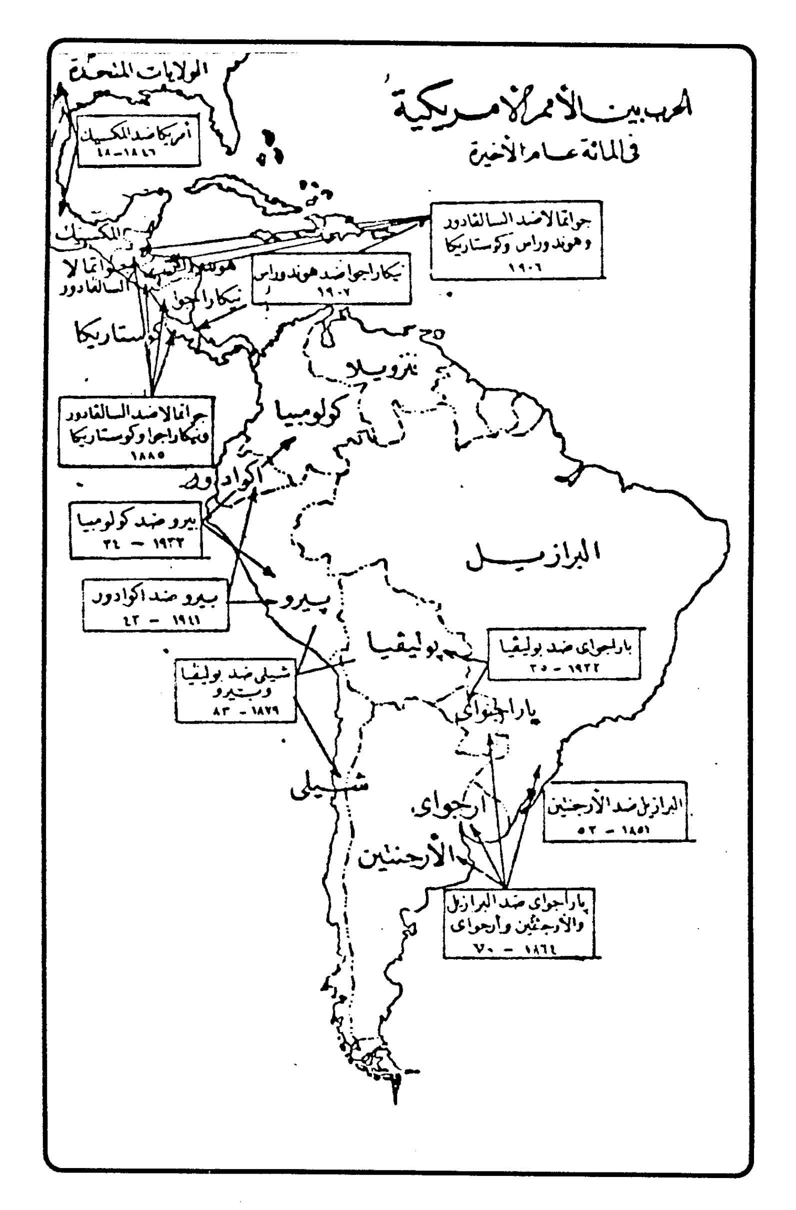
خلفه ابنه فيليب الثانى ملك أسبانيا استمر فى سياسة الاضطهاد وأخذت الجنود تتحرش بالاهالى فقامت الثورة وانقض الناس على الكنائس الكاثوليكية وكسروا ما فيها من تماثيل وصور فما كان من فيليب إلا أن أرسل «دوق ألفا» على رأس جيش عظيم من الأسبان لمعاقبة الثوار فكون المجلس المعروف بمجلس الدم لكثرة ما أراقه من الدماء وقد اقترف (ألفا) من الفظائع ما يندر وجود مثله فى التاريخ.

ولعل الحسنة الوحيدة التى نتجت عن هذه الاضطهادات التى صحبت حركة الإصلاح الدينى فى وسط أوربا وغربها وجنوبها هى عمران القارة الأمريكية، فقد كان المضطهدون يفضلون الهجرة إلى بلاد غريبة بعيدة عن البقاء فى أوطان يسامون فيها الخسف والعذاب.

ولعل النزاع الدينى بين المسيحيين لا يعطى إلا صورة مصغرة لما بينهم من بغضاء هذه البغضاء التى تتجلى على أتم صورة لها فى كثرة الحروب بين الدول المسيحية تلك الحروب التى تزيدها الأيام شدة واتساعا والتى لم يحدث مثلها بين الدول التى تدين بغير المسيحية.

ترجع تلك الحروب إلى تغلغل الطمع فى قلوب المسيحيين وعبادتهم للمادة ونسيانهم مبدأ دينهم السامى الذى يحثهم على الزهد وعلى عدم التكالب على الدنيا فهم حين نسوا ما ذكروا به كثرت أسباب النزاع بينهم حين نسوا أنهم أخوة فى دين مبدؤه التسامح التام وكثرت حروبهم وانتزعت المادة من قلوبهم الحب والتراحم وامتلأت حقدا وبغضاء وأصبح لا يشبع حفيظتهم إلا إراقة الدماء وأصبحت الإنسانية عندهم لفظة جوفاء وانحدروا إلى هوة من الوحشية لا تدانيها وحشية وحوش الغاب فقد سخروا العلم لإشباع جقدهم فأنتج البندقية والمدفع والقنابل المتفجرة والحارقة والمجنحة والصاروخية وقنابل الأعماق والألغام العادية والمغناطيسية والطائرات والدبابات والرصاص المسمم والخارق للفولاذ والغاز السام وأشعة الموت والقنابل الذرية وقنابل الميكروبات ولم يكفهم هذا فأخذوا يبحثون فى أسرار الكون عن مهلكات جديدة وهكذا أدى إهمالهم لروحية المسيح الى إهلاك أنفسهم واستعباد غيرهم.

وبعد أن كانت جيوشهم تعد بالآلاف أصبحت تبلغ الملايين عدا وبعد أن كانت حروبهم تشب فى نطاق ضيق ولا تستغرق إلا أياما أو شهورا أصبحت تشمل الممالك الفسيحة، وقد تشمل العالم كله ثم هى تمتد الى سنوات طوال ثقال



الحروب بين الأمم الأمريكية فى المائة عام الأخيرة

وبعد أن كان الصراع وجها لوجه. أخذ العذاب يصب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن فوق سطح الماء وباطنه وبعد أن كانت الفترات بين الحروب متباعدة أخذت تتقارب على مدى الأيام وإن إحصاءنا للحروب التى غمرت العالم المسيحى فى النصف الأول من القرن العشرين ومدى اتساعها وما جرته من خراب ودماء وتعاسة وشقاء يبين لنا أن العداء لا تحصره الأيام أو تضيقه ولكن تزيده رقعته وتوسعه.

ففى الخمسة والأربعين سنة التى مرت من هذا القرن حدث فى أوربا وحدها الحروب الآتية:

(١) الحرب العالمية الأولى. (٢) الحرب الأسبانية الأهلية.
(٣) الحروب اليونانية الإيطالية. (٤) الحرب العالمية الثانية.
(٥) الحرب الروسية الفنلندية.

أما الحروب التى حدثت بين المسيحيين فى غير أوربا فأهمها الحروب التى كانت تنشب من حين لآخر بين جمهوريات أمريكا الجنوبية، وفى الصفحة المقابلة بيان لهذه الحروب ومنه يظهر أنه لم يسلم من نارها فى المائة عام الأخيرة غير ثلاث ممالك: كندا وغيانا وفنزويلا: والأوليان منها مستمرتان. ومن ذلك نرى أن عاديتهم عبرت معهم المحيطات فحولوا تلك الأرض الجديدة إلى مسرح للمشاحنات وناهيك عما يلقاه السود فى الولايات المتحدة من اضطهادات وقد استغرقت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات عدا ما سبقها من استعدادت طويلة الأمد واشتركت فيها معهم معظم الدول الأوربية وجرت أوربا أمريكا فى أعقابها كما استغرقت الحرب الحبشية الإيطالية ما يقرب من ستة أشهر.

واستغرقت الحرب العالمية الثانية ستة أعوام عدا فترة الاستعدادات التى سبقتها والتى استغرقت ستة أعوام أخرى، كما استغرقت الحرب اليونانية الإيطالية ما يقرب من عام عدا ما استغرقته الحرب الأسبانية الأهلية والروسية الفنلندية وحروب أمريكا الجنوبية فلو جمعنا سنى الحرب لوجدنا أنها أكثر من ثلاث عشرة سنة متواصلة ليلا ونهارا ومثلها كانت سلاما مسلحا وذلك فى مدة لم تبلغ نصف قرن.

وقد اشترك فى الحرب العالمية الأولى خمس عشرة دولة من الدول المسيحية، أما الحرب العالمية الثانية فقد اشترك فيها من الدول المسيحية اشتراكا فعليا إحدى

وعشرون دولة تقريبا وليت أمرهم كان بينهم بل جروا العالم وراءهم.

ولو أنك نظرت إلى النفقات التى ذهبت فى تفكير الإنسان فى قتل أخيه الإنسان لوجدتها قد وصلت إلى حد لا يمكن أن يتصوره العقل وقد كان يكفى لإسعاد البشر قاطبة عشرات السنين، وقد بلغ عدد القتلى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ستين مليونا من الأنفس هذا غير ما شاهدناه فى الحرب العالمية الثانية من الفظائع التى لم يحدث مثلها فى التاريخ والتى لا يفكر فى الإقدام عليها من لا دين لهم وحتى من لا ضمير لهم، تلك الفظائع التى ظهرت فى معسكرات الاعتقال وقد مات فيها قرابة العشرين مليونا والتى هى صورة مكبرة لتمثيل الملكانيين باليعاقبة فى حصن بابليون. أحيت لنا معسكرات الاعتقال هذه الفظائع بصورة أشد وأنكى بصورة رسمتها يد الوحشية القاسية فمن غرف الغاز الى أفران الاحتراق إلى التمثيل إلى القسوة التى لم تعهد حتى فى الوحوش الكاسرة وما ذلك إلا لأن مسيحى أوربا نسوا الله فأنساهم أنفسهم، نسوا ما جاءهم به دينهم من الرحمة والتسامح وجعلوا المادة هدفهم الأول والأخير فأعمتهم وأضلت أبصارهم. نسوا زهد المسيحية وصوفيتها فانغمسوا فى ظلمات تطبق عليهم تدريجيا وتزداد حلكة وعبوسا وتجهما.

تسلطت عليهم المادة فأنستهم البديهيات وغلبت عليهم الوحشية ففضلوا أن يتطاحنوا ويتقاتلوا لا يبالون أن يفقروا أنفسهم ومعظم البشر معهم إرضاء لشهواتهم الجامحة يخربون ديارهم ويجنون على أنفسهم وغيرهم.

وهل هناك أكثر دلالة على هذا من أن الحربين العالميتين الأولى والثانية قد أنفق فيهما ما يقرب من ٣٠٠ مليار جنيه. فلو فرضنا أن سكان العالم اليوم على أقصى تقدير ٢٠٠ مليون نفس بين رجل وطفل وامرأة وأردنا أن نوزع هذا المبلغ عليهم لخص كل نفس ١٥٠ مائة وخمسون جنيها ويخص العائلة المكونة من عشرة أفراد ١٥٠٠ ألف وخمسمائة جنيه. فلو وزعت هذه المبالغ التى ذهبت فى صنع آلات الهلاك والتدمير لسعد البشر واغتنى بدل ما أعقبته الحرب من فقر ومرض وجوع وعرى ونكبات ومشاكل عمت الشرق والغرب.

ولقد بلغ الفقر فى بعض الممالك مثل فرنسا مبلغا وصل بهم إلى درجة ألجأتهم إلى بيع أطفالهم فى أعقاب الحرب هذا غير ما يصحب الحرب من رذيلة وفاحشة وليس أدل على ذلك من أن الحرب الأخيرة تركت وراءها فى فرنسا نصف

مليون من الأطفال اللقطاء أنجبهم آباء من جنود الألمان والحلفاء وناهيك عن المجاعة الناشبة أظفارها فى أوربا والأمراض التى تجتاح العالم نتيجة لماديتهم التى تزداد كلما مرت الأيام وتوالت الأعوام.

ولو أنك أردت أن تتخذ القرن التاسع عشر مقياسا تقيس به مقدار ما يكنه المسيحيون بعضهم لبعض من عداوة كما دل عليه القرآن الكريم لوجدت فيه من الحروب والثورات ما يصعب تتبعه وحصرة، وأبرز حروب هذا القرن الحروب النابليونية التى شملت أوربا كلها من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولو أنك رجعت إلى ما سبقه من القرون لوجدت أن تاريخ معظم المسيحيين مخضب بالدماء لا أثر للسلم أو التسامح فيه ومن حروبهم المشهورة حرب السنين السبع التى امتدت من سنة ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ وهى حرب من سلسلة الحروب التى كثرت فى القرن الثامن عشر ومما يستحق الإشارة إليه أيضا من تلك الحروب حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا التى ابتدأت سنة ١٣٣٨ واستمرت مستعرة ما يزيد على قرن من الزمان.

والآن وقد انتهت الحرب العالمية الثانية نجد أنها لم تنه الصراع ولم تزل أسباب العداوة بل زادتها تأصلا ووسعت رقعتها فهذا الشعب الألمانى ينحل فى جسمه الجوع والعرى ويملؤه الغيظ المكبوت الذى ينتهز الفرصة السانحة للانتقام وهناك فى بلاد اليونان اتخذ الصراع شكلا آخر فهناك يتقاتل المعسكران الصقلى والإنجلوسكسونى اللذان اقتسما أوربا من وراء الستار واتخذا اليونان مسرحا لهما وهناك الاستعداد الحربى والعلمى القائم فى الخفاء الذى سيتمخض عن أفظع حرب بين هؤلاء الذين أمرهم دينهم أن يكونوا أحباء فإذا هم يسعون بأنفسهم وبغيرهم إلى الفناء. إذن فهل بعد هذا التأريخ العجيب للماضى وللمستقل يقال: إن هذا كلام بشر؟ فأى بشر يمكنه أن يتنبأ بمثل هذه الدقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؟

حوار

١ ــ إسماعيل

ذات يوم قال لى أحد العلماء ألا تتناول مسألة إسماعيل؟

قلت: وما فيها.

قال: إن هناك خلافا بيننا وبين اليهود فى موضوعين: أولهما أنهم يقولون: إنه نزل مع أمه هاجر بين مصر وفلسطين وتناسل هناك وانضم قومه بعد ذلك إلى نسل إسحاق، أما نحن المسلمين فقد نص عندنا أنه نزل بمكة بدليل قوله تبارك وتعالى فى سورة إبراهيم فى الآية السابعة والثلاثين: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ فوق ذلك فإن إسماعيل اشترك مع أبيه إبراهيم فى تجديد بناء الكعبة كما ورد فى سورة البقرة فى الآيتين السابعة والعشرين بعد المائة والثامنة والعشرين بعد المائة بقوله تبارك وتعالى: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.

كما كان إبراهيم وإسماعيل هم سدنة البيت وحراسه كما يستفاد من قوله تبارك وتعالى فى سورة الحج: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾.

أما الخلاف الثانى فهو قولهم: إن إسحاق هو الذبيح وهذا يتنافى مع ما ورد عن رسول الله ﷺ من قوله: (**أنا ابن الذبيحين**) ويتنافى مع اتخاذ المسلمين هذه المناسبة عيدا لهم يتقربون فيه إلى الله بالذبائح وإطعام الفقراء من لحومها.

قلت له يا سيدى: إن مسألة الذبيح أثيرت من قديم فقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سأل أحد اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن هذا الخلاف.

فقال له: هو إسماعيل واليهود يعلمون ذلك ولكنهم يغارون منكم فينكرون

ويقولون إنه إسحاق.

قال لى صديق ولعل هذه رواية لا يمكن أن تتخذ دليلاً حاسما فى الموضوع وخصوصا وقد أشكل الأمر على بعض المسلمين.

قلت: هذا صحيح فهيا نلجأ إلى مصدر آخر ربما أفادك فى الموضوع فقد جاء فى سفر التكوين العهد القديم (التوراة) فى الإصحاح السادس عشر ما يأتى:

(أ) فولدت هاجر لإبراهيم ابنا. ودعا إبراهيم اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل. وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبراهيم.

(ب) وجاء فى الإصحاح الحادى والعشرين.

وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه.

(جـ) وجاء فى الإصحاح الثانى والعشرين عن مسألة الذبيح (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك) ثم قص بعد ذلك بقية القصة.

وملخص ما ذكرت لك أن هاجر ولدت لإبراهيم ابنا يدعى إسماعيل وأن سارة ولدت إسحاق بعد ذلك بأربعة عشر عاما وأن الله بعد ذلك امتحن إبراهيم بأن أوحى إليه أن يذبح ابنه وحيده إسحاق.

هنا استولت الدهشة على رجل الدين وقال كيف يكون إسحق وحيد إبراهيم وقد كان له ولدان إسحق أصغرهما؟ فهل كان إسماعيل قد مات وقتئذ؟ إن هذا تضارب عظيم.

قلت. اذن اتفقنا فقد كان إسماعيل حيا إذ لم يمت إلا بعد المائة والثلاثين وما دام الأمر كذلك، ففى هذا النص زيادة فإما أن كلمة وحيدة زيدت فى الآية وإما أن كلمة إسحق أضيفت ولابد للذى تجرأ أن يضيف إلى كتاب مقدس ويحرفه أن يكون له مصحة عظيمة فى ذلك.

قال: ومن له المصلحة؟

قلت. أنت تعلم من له فى ذلك غرض، فالعرب ليس هذا كتابهم ولم يكن مكتوبا بلغتهم. إذن فأصحاب الكتاب الأمناء عليه هم الذين كانت على يديهم الإضافة وليس من مصلحتهم أن يضيفوا كلمة وحيدة ولكن من المعقول أن يضيفوا كلمة إسحاق لتكون تفسيرا لوحيده لينسبوا هذا الشرف لهم وخصوصا وقد جاء فى التوراة فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكون.(ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى أقسمت يقول الرب أنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أبارك مباركة وأكثر نسلك كثيرا كنجوم السماء وكالرمل على شاطئ البحر) فأنت ترى هنا أنه ذكر ابنك وحيدك من غير تخصيص.

قال صديقى: هذا حسن ولكن ما قولك فيما يقوله بعض المسلمين من أن إسحاق هو الذبيح.

قلت: ألم يعلم أولئك المسلمون أن البشارة بإسحاق فى القرآن كانت بشارة مزدوجة: بشارة بولادة إبراهيم لإسحاق وبشارة بولادة يعقوب من إسحاق بقوله تبارك وتعالى فى سورة هود: ﴿**وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب**﴾ فهل يتفق هذا مع الأمر بذبح إسحاق صبيا؟ أظنه لا وأظن أن هذا لا يكون أمرا جديا.

وهيا نتتبع سويا قصة الذبيح فى القرآن ففى سورة الصافات يقول تبارك وتعالى: ﴿ **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾. تتلخص هذه القصة فيما يلى:

أولا: أن قوم إبراهيم ألقوه فى النار فأنجاه الله وأنه هاجر إلى حيث أمر الله

وهناك دعا ربه أن يهبه ذرية صالحة.

(ثانيا) كان من نتيجة هذا الدعاء أن رزقه الله غلاما ثم ابتلاه فيه بأن أمره أن يذبحه فصدع بالأمر فاقتداه الله بذبح عظيم.

(ثالثا) أن الله بشره بإسحق وبأنه سيكون نبيا من الصالحين.

هذا هو تسلسل القصة وتسلسلها يبين بوضوح ما ترمى إليه، فأنت ترى أن إبراهيم عقب هجرته دعا ربه أن يهبه ذرية صالحة وأنت تعلم أن (سارة) كانت عاقرا فسمحت لإبراهيم أن يبنى (بهاجر) جاريته التى وهبها ملك مصر له عند زيارته لمصر بعد نزوحه على أرض آبائه فولدت له ولدا هو إسماعيل ولذلك فقد كان إسماعيل أول ثمرة من ثمرات هذا الدعاء وبذلك فهو المقصود بقوله تبارك وتعالى: ﴿**وبشرناه بغلام حليم**﴾ إذ إن البشارة كانت نتيجة مباشرة للدعوة وثابت من الكتب المقدسة جميعا أن أول أولاد إبراهيم هو إسماعيل الذى يكبر إسحاق بما يقرب من أربعة عشر عاما.

وأنت ترى أن البشارة بإسحق فى هذه الآيات أتت بعد سرد حادث الذبح فهل بعد هذا يقال: إن إسحاق هو الذبيح؟!

قال رجل الدين: الآن أيقنت أن الذبيح هو إسماعيل وأن حادثة الذبح حدثت قبل ولادة إسحاق كما يستقى من القرآن وبنص التوراة. ولكن قل لى أين مكان هذه الحادثة التاريخية؟

قلت: سأنتقل بك إلى النقطه الثانية من الخلاف وهى المكان الذى أرسل إبراهيم إليه ابنه إسماعيل وفيه ستجد إجابة على سؤالك وسأرجع بك إلى سفر التكوين.

(أ) ففى الإصحاح السابع عشر (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة).

(ب) وفى الإصحاح الحادى والعشرين (فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق.

(ورأت سارة بن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق. فقبح الكلام

جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها؛ لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك. فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفيها والولد وصرفها: فمضت وتاهت فى بريه بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابلة بعيدا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابلة ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الرب هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومى احملى الغلام وشدى يدك به. لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن البرية. وكان ينمو رامى قوس. وسكن فى برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر).

وجاء فى الإصحاح الخامس والعشرين من هذا السفر أيضا.

(وهذه سنو حياة إسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة. وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه. وسكنوا من جويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء إلى آشور. أمام جميع إخوته نزل).

وجاء فى الإصحاح الثالث عشر

(وكان إبرام غنيا جدا فى المواشى والفضة والذهب).

كما جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين على لسان عبد إبراهيم حينما ذهب ليخطب زوجة لإسحاق (أنا عبد إبراهيم. والرب قد بارك مولاى جدا فصار عظيما وأعطاه غنما وبقرا وفضة وذهبا وعبيدا وإماء وجمالا وحميرا) هذا ما ورد فى التوراة عن هذا الموضوع ويتلخص فيما يأتى: -

(١) أن سارة طلبت من إبراهيم إبعاد هاجر وابنها وأن إبراهيم أخذته الشفقة على ابنه فاستاء من هذا ولم يوافق إلا بناء على أمر إلـهى.

(٢) أن إبراهيم أمر هاجر بالرحيل ولم يذهب معها ووضع على كتفها عند رحيلها قربة ماء وخبزا وإسماعيل كذلك.

(٣) أن هاجر تاهت فى صحراء بئر سبع ولما فرغ الماء من قربته طرحت إسماعيل تحت إحدى الأشجار وذهبت تلتمس ماء فأمرها الله أن تحمل ابنها وعندئذ أبصرت بئر ماء فملأت القربة وسقت الغلام.

(٤) أن إسماعيل وقومه كانوا فى مكان مجاور لمصر وأنهم انضموا إلى نسل إسحاق فيما بعد وأن أم إسماعيل زوجته من فتاة مصرية.

هنا لم يتمالك صاحبى نفسه فقال: كيف يترك نبى مثل إبراهيم فلذة كبده يسير إلى غير هدى لا يصحبه فى رحيله ولا يطمئن الى مسيره والأنبياء أكثر الناس رحمة وأكثرهم معرفة بحقوق الأبوة والبنوة وهو الذى استقبح هذا العمل بادئ الأمر ولولا أمر إلـهى ما نفذه؟ وهل يعقل أن إبراهيم الغنى ذا الأموال والذهب والفضة والعبيد والإماء يترك ابنه وزوجته يقطعان هذه الفيافى سيرا على الأقدام وعنده الكثير من الدواب؟! فأنت تقول: إنه وضع إسماعيل على كتفها عند رحيلها وإنها حملت إسماعيل مرة أخرى بعد أن طرحته تحت إحدى الأشجار وفى ظنى أن إسماعيل فى ذلك الوقت كان لا يقل عن ستة عشر عاما إذ حدث هذا بعد فطام إسحق وفى هذا السن يكون الصبى نامى الجسم على أبواب الرجولة يصعب حمله دقائق فكيف يحمل فى سفر؟! وأنت تقول: إن إسماعيل وقومه سكنوا تقريبا بين مصر وفلسطين فأين أمته العظيمة التى تحدثت التوراة عنها؟ ألا تكون برية فاران هى جبال مكة أو جبال الحجاز كما جاء فى المجلد السادس من معجم البلدان؟ ثم أنت تقول أيضا: إنه تزوج من مصرية وقد سمعت أن اليهود يقولون: إن زوجة إسماعيل تدعى فاطمة وهذا اسم عربى لم تعرفه مصر القديمة.

قلت: الواقع أنى لم أقل هذا ويظن أنه اختلط عليك الأمر، فهذا كلام منقول بنصه من التوراة. وأنا على اتفاق معك ونقدى لهذا ينحصر فى زمن هجرة إسماعيل ومكانه والداعى إليه فأنت تعلم أننا نحن المسلمين نقول: إنه رحل مع أمه وهو رضيع وهذا يتفق مع ما جاء فى التوراة من أن ابراهيم وضعه على كتفها ومع طرح أمه له تحت شجرة وحمله ثانيا.

وهذا ما تبرره الطبيعة الإنسانية، فغيرة المرأة تبلغ أشدها إذا أنجبت ضرتها وهى عاقر وتضمحل هذه الغيرة وتكاد تختفى إذا أنجبت هى الأخرى إذ يملأ قلبها حب ابنها ويزول داعى غيرتها عند ذلك.

فمن المعقول أن سارة بدأت غيرتها عندما حملت هاجر وهذا ما حدث فعلا،

فعندما حملت هاجر قست سارة عليها حتى اضطرتها للفرار من خدمتها ولولا أمر إلـهى ما عادت إليها فقد جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح السادس عشر (فأذلتها ساراى فهربت من وجهها) وقد بلغت غيرة سارة أشدها عندما وضعت هاجر لإبراهيم ولدا، فمن المعقول عند ذلك أن تطلب من إبراهيم إبعاد جاريته لأنها شعرت فى ذلك الوقت أنها أصبحت لها ندا. وليس من المعقول أن تطلب ابعادها بعد ستة عشر عاما لسبب مادى وهو خشيتها أن يرث إسماعيل مع إسحق ومى امرأة نبى وأم نبى مفروض فيها ألا تقيم للماديات هذا الوزن الكبير!

ويلاحظ فى نص التوراة أن إبراهيم أغضبه هذا الطلب ولم يوافق عليه إلا بناء على أمر إلـهى ولا بد أن هذا الأمر الإلهى وجهه وأرشده إلى الجهة التى يضع فيها فلذة كبده ومن المستساغ أن يكون هذا التوجيه إلى مكان لله فيه حكمة وله عند الله منزلة ولذلك فمن المعقول أن تكون هجرته بإسماعيل وأمه إلى ذلك المكان المقدس الذى أشار إليه القرآن بقوله: ﴿**بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم**﴾ لا أن يترك الولد وأمه على غير هدى ليضلوا فى صحراء مقفرة لا معالم فيها كبير سبع من غير أن يصحبهم أو يعطيهم دابة من دوابه الكثيرة مع ما اشتهر به إبراهيم من كرم يضرب به المثل مع الغرباء فما ظنك بالأبناء؟! وهل لم يصل إلى سمعك أن قرنا الكبش الذى افتدى به الذبيح كانا معلقين بالكعبة حتى احترقا معها عندما هاجم الحجاج مكة أيام ابن الزبير؟! قال: ولكن من أين نشأ هذا التضارب؟ قلت: لا أدرى ولكنى أعلم أن هناك غير هذا اختلافا كثيرا وسأضرب لك مثلا بقصة لوط فنحن المسلمين نعلم أن الملائكة التى أرسلها الله لتهلك قوم لوط مروا بإبراهيم فذبح لهم عجلا سمينا ظنا منه أنهم بشر يأكلون فلما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة كما يستقى من قوله تبارك وتعالى فى سورة هود: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ** ﴾. ولكن التوراة تقول: (ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم. وإذْ كان واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا) فهل يعقل أن تأكل الملائكة؟! هنا ضرب صاحبى كفا على كف وقال. إلى اللقاء.

حوار

ب ـ بداية النهاية

العصر الذرى

ذات يوم وفى كوكبة من العلماء تحاورت مع أحدهم، فقال: ما الجديد الذى فى جعبتك؟

قلت سأحدِّثُكَ عن العصر الذرى.

قلت: أى شيء فى الإسلام عنه؟

قلت: هناك آيتان فى الإسلام تلخصانه. أولاهما سورة الإسراء، وثانيتهما سورة يونس، أما الأولى فهى قوله تبارك وتعالى.

﴿ وإن مَن قرْيَةٍ إلاَّ نحْنُ مُهْلكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقيامَة أوْ مُعذّبُوها عذابًا شديدًا كان ذلك في الْكتاب مسْطُورًا﴾

وأما الثانية فهى قوله تبارك وتعالى:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾.

قال صديقى: وما فى ذلك؟

قلت: أليس معنى الآية الأولى أن هناك حربا أو حروبا ستنشب قبل قيام الساعة فلا ينجو منها مكان فى العلم وما لا يمحى من الوجود سيصب عليه الغذاب ألوانا؟

قال: نعم.

قلت: وأليس معنى الآية الثانية أن الأرض عند قيام الساعة ستكون مزدهرة مزدانة عامرة كعروس ليلة زفافها وسيسخر الإنسان قوى الطبيعة لمشيئته نتيجة لتقدم العلم وسيدور فى خلد الناس حينئذ أنهم قد سيطروا على الطبيعة فينسيهم جبروتهم جبروت الله عز وجل: حينئذ تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون!

قال: حقا.

قلت: إذن ملخص هاتين الآيتين أنه قبل قيام الساعة سيأتى عهد أو عهود كلها بلاء وحروب تدمر معظم الأرض ولن يكون من نجا بأسعد ممن هلك وسيعقب ذلك عهد رخاء وازدهار لم ير الناس مثله وعندئذ تقوم الساعة.

قال: وبماذا ينبئ العلم عن ذلك.

قلت: لعلك تسلم معى أن هذا هو المنتظر من تفجير الذرة ومن تنافس الدول فى اختراع المهلكات، فبجانب القنابل الذرية التى أخذوا يزيدون فى حجمها وقوتها وسرعة قذفها اخترعوا تراب الموت والقنابل الشمسية والشعاع الذرى واخترعوا قنابل المكروبات ويقولون عنها أن فى إمكانها أن تزيل من الوجود كل أسباب الحياه فى مدينة كبيرة وهم يحاولون أن يخترعوا صواريخ تحمل القنابل الذرية عابرة المحيطات والقارات طائرة ليستطيعوا أن يدمروا المدن فى ثوان معدودات، هذا عدا ما يخبئه المستقبل من أنواع جديدة للمهلكات. وقد أخذت الدول الآن كما ترى تنقسم إلى معسكرات وتتفنن فى الاختراعات وتزداد بينها العداوات وأخذ الناس من الآن وشبح الحرب العالمية الثانية لا يزال جاثما أمام أعينهم يتحدثون عن حرب مقبلة لا تبقى ولا تذر. وقد تتبع هذه الحرب المقبلة حروب ما استمرت المادة مسيطرة على عقول البشر.

قال صديقى: وكيف ستزدهر الأرض فى عهدها الأخير؟

فأجبته أن ازدهار الأرض سيكون نتيجة لتقدم العلم واستخدام الذرة فى الأغراض السلمية مما سينتج عنه وفرة الإنتاج الصناعى والزراعى وفرة عظيمة وسهولة فى النقل واتصال الممالك والأفراد بعضهم ببعض وسينتج من ذلك رخاء فى ظنى أنه سيعم العالم أجمع وإليك ما يتنبأ به علماء الذرة فهم يقولون أنه إذا أطلقت الذرة من عقالها فسيستطاع فى القريب العاجل تغيير شكل الأرض كما يهوى الإنسان فمثلا يمكن إيجاد بحيرات فى وسط الصحارى الجافة كصحراء جوبى وبلاد العرب والصحراء الكبرى، وبذلك يمكن تحويلها إلى أراض خصبة ويتنبأ العلماء أيضا بأنه يمكن إمداد المناطق القطبية الشمالية والجنوبية بالحرارة اللازمة التى تمكن الإنسان من العيش الدائم فيها وذلك نتيجة للإشعاع الهائل الممتزج بالحرارة الشديدة الناتجة عن تفجير الذرة فتذوب ثلوجها وتصبح مثل غيرها من المناطق المعمورة وسيمكن تحويل مياه البحار والمحيطات من ملح أجاج إلى عذب فرات وسيتمكن الإنسان بوساطة الإشعاع المتفجر من الذرة أن يقلب سواد

الليل الحالك إلى نهار وهاج ساطع، كذلك سيمكن إنبات الزرع فى غير أوانه عن طريق الحرارة المنبعثة من الذرة وسيتحقق ذلك الحلم الجميل الذى طالما رنا إليه الإنسان وهو الوصول إلى القمر وسيستغنى الإنسان عن الفحم والكهرباء وستصبح تكاليف المعيشة فى غاية البساطة وفى ميسور الجميع فيعم الرخاء ولعل هذا العصر هو الذى أشارت إليه الآية الكريمة والذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله فى حديث عن حارثة بن وهب: (تصدقوا فسيأتى على الناس زمان يمشى الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها) ولعل خير ما يلخص ما نحن قادمون عليه حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فتتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة إلى أن قال وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهِمَّ ربَّ المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا أرب لى به**».

قال رجل الدين: وهل تظن أن كل هذه الفروض محتمله وأين لبلاد كبلاد العرب تلك الصحراء المقفرة وهى المقصود الأول بهذا الحديث هذا المال الوفير والرخاء العميم؟

قلت: أغاب عن علمك الذهب الأبيض (البترول) الذى أخذت تتفجر به ينابيع تلك الصحراء وإن أول تقدير له ثلاثون ألف مليون من الجنيهات، وما يدريك طيات تلك الصحراء من كنوز وخيرات؟

قال رجل الدين لقد صدق الله العلى العظيم الذى قال وهو أصدق القائلين **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد﴾**.

وهذا ما أنعم الحق تعالى به ونعم الخالق سبحانه لا تحصى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

الفهرس

مطبعة جزيرة الورد

المنصورة: ت: ٣٥٧٨٨٢

نوسا البحر ـ أجا / ت: ٤٤١٢٣٦